مجلة المنهل ـ المجلد: 08، العدد: 02 (2022 م) ـ ص ص 553 – 586
ISSN : 2437 – 1068 • EISSN 8392-2710

جهود تعليمية قرآنية ومواقف إصلاحية لأعلام مدرسة الفلاح الحرة التقرتية زمن الاستعمار الفرنسي

Quranic educational efforts and reformist positions for the flags of the Al-Falah Free School in Touggourt during the French colonisation

محمد الصالح ستي (*)
مخبر الدراسات القرآنية والسنة النبوية
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة (الجزائر)
Taleb.se@gmail.com

تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2022/07/01	2022/12/29	2023/01/13

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:

يعد التعليم القرآني بمدرسة الفلاح الحرة بتقرت النشاط الأساسي والغطاء الفعال لجملة من الجهود الإصلاحية التي تبنتها المدرسة إبان الغزو الفرنسي للمنطقة، حيث جسدت هذه المدرسة وعي رجال المنطقة ويقظتهم، وتحليهم بروح المسؤولية والحفاظ على قيم ومبادئ الأمة، تهدف هذه الدراسة إلى التعريف ببعض مشايخ وأعلام مدينة تقرت، وتسليط الضوء على جهودهم في تعليم القرآن وبعض الأنشطة الإصلاحية الأخرى، إضافة إلى نفض الغبار عن معلم تاريخي أثري مهم بمدينة تقرت، تآكلت جدرانه وتساقط بنيانه، ألا وهو مدرسة الفلاح الحرة.

كان من أهم نتائج الدراسة أنه كان للتعليم القرآني بمدرسة الفلاح دور هام في المحافظة على الهوية الوطنية والانتماء العربي والإسلامي لأبناء المنطقة، من خلال إحياء دور القرآن في تزكية وإصلاح الأنفس؛ فرض التعليم العربي الحر؛ نشر الوعي وتصحيح العقائد؛ مواجهة تحريف التاريخ؛ ومقاومة حملات الفرنسة والتجهيل والتنصير، التي قادتها السلطات الاستعمارية وأعوانها بالمنطقة.

الكلمات المفتاحية: التعليم؛ القرآن؛ الإصلاح؛ مدرسة؛ الفلاح.

Abstract :

The Qur'anic education at Al-Falah Free School is the basic activity and the effective cover for a number of reform efforts adopted by the school during the French invasion of the region. Touggourt, highlighting their efforts in teaching the Qur'an and some other reform activities, in addition to dusting off an important archaeological historical landmark in the city of Touggourt, whose walls have eroded and its structure has fallen, which is the Free Farmer School.

One of the most important results of the study was that the Qur'anic education at Al Falah School had an important role in preserving the national identity and the Arab and Islamic affiliation of the people of the region, by reviving the role of the Qur'an in recommending and

(*) المؤلف المراسل.

reforming souls; Imposing a free Arab education; Spreading awareness and correcting beliefs; countering the distortion of history; And resisting the campaigns of the French, ignorance and Christianization, which were led by the colonial authorities and their supporters in the region.
Keywords: Education; Quran; Reforming; School; Al-Falah.

1. مقدمة

يعد التعليم القرآني الأساس الذي قام عليه بنيان المجتمعات الجزائرية عموما ومجتمعات الجنوب الجزائري خصوصا، وذلك منذ أن بزغت شمس الإسلام على هذه المنطقة، حيث عُرفت هذه المناطق بحبها للقرآن الكريم وأهله، وحرصها على دفع أبنائها إلى الكتاتيب والزوايا من أجل حفظ القرآن ومدارسته منذ نعومة أظفارهم، لاقتناعهم الراسخ بدور القرآن الكريم في تزكية النفوس وهداية القلوب وإصلاح المجتمع، والمحافظة على القيم والعادات.

وبعد أن وقعت الجزائر تحت وطأة الاستعمار الفرنسي الغاشم، وبسط سيطرته على غالب ربوع الوطن ووصوله إلى مناطق الجنوب، وتمكنه من تحقيق الخطوة الأولى في غزو الأرض، توجه إلى الخطوة الثانية وهي أشد وأخطر، في محاولة لغزو العقول والقلوب، فعمل على سلخ الجزائريين من انتمائهم الإسلامي والعربي، وطمس هويتهم، ومحاربة قيمهم وعاداتهم، وإفراغ المساجد والكتاتيب من روحها ودورها الإصلاحي، وكل ذلك بهدف جعل الجزائر دويلة فرنسية دينا ولغة وثقافة.

لكن هيهات هيهات، فبعد أن ظن المستعمر أنه حقق هدفه، وبلغ غايته، وفي غفلة من أمره، بزغ نور الإصلاح، وهبت رياح التغيير والتنوير، على يد زمرة من المشايخ والعلماء، تنكبوا مسؤولية بعث التعليم القرآني على أصوله من جديد، فعملوا على إيقاظ الضمائر، وتصحيح العقائد، وتنوير العقول، من خلال مشاريع إصلاحية تبنتها جمعيات ومدارس حرة، كان من أهمها جمعية الفلاح الدينية والمدرسة الحرة المنبثقة عنها بمدينة تقرت، والتي جعلت من التعليم القرآني أساسا لنشاطها وواجهة لها، ومن ورائه جملة من النشاطات الإصلاحية؛ كان لها دور هام في المحافظة على الهوية الدينية والوطنية للمجتمع التقرتي.

فكيف تأسست مدرسة الفلاح الحرة؟ ومن أشهر أعلام ومشايخ هذه المدرسة؟ وما أهم جهودهم في تعليم القرآن والنشاطات الإصلاحية والتنويرية التي كانت تحت غطائه؟

سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال الخطة الآتية:

1- مقدمة

2- المحور الأول: الوضع العام لمدينة تقرت إبان الغزو الفرنسي.

3- المحور الثاني: تأسيس مدرسة الفلاح الحرة.

4- المحور الثالث: التعريف بأشهر شيوخ ومعلمي المدرسة وجهودهم.

5- المحور الرابع: التعليم القرآني بمدرسة الفلاح وسائله وطرقه.

6- المحور الخامس: أهم الأنشطة الإصلاحية والتنويرية التي مارستها المدرسة تحت غطاء التعليم القرآني.

7- الخاتمة

2. الوضع العام لمدينة تقرت إبان الغزو الفرنسي لها

قبل التطرق إلى الوضع العام لمدينة تقرت إبان الغزو الفرنسي حري بنا أن نعرف بهذه المنطقة من خلال ذكر موقعها الجغرافي؛ فمدينة تقرت تقع على خط عرض 33 شمالا فوق نتوء يرتفع عن البحر بحوالي 70 مترا، وهي تشرف على عدد من القرى شمالا وجنوبا، يغطي ظهرها من الغرب بحر من الكثبان الرملية، وتترامى على جانبيها وبين ذراعيها غابات من النخيل الباسقة والبساتين المتشابكة بأشجار الفواكه؛ كأشجار المشمش والتين والعنب والرمان.

ولأهميتها المكانية فهي مفتوحة على أكبر المدن الصحراوية المشهورة، ترتبط من الشرق بمدينة الوادي على الطريق رقم 16 بحوالي 95 كلم، ومن الشمال بمدينة بسكرة على الطريق رقم 03 بحوالي 220 كلم، ومن الجنوب بمدينة ورقلة بحوالي 160 كلم على الطريق رقم 32 في النقطة الكيلومترية 80، وبمدينة حاسي مسعود بحوالي 170 كلم على الطريق رقم 03، ومن الجنوب الغربي بمدينة غرداية على طريق القرارة وبريان بحوالي 350 كلم، وبمدينة الجلفة عن طريق مسعد بحوالي 380 كلم، وتبعد عن العاصمة بحوالي 650 كلم.[1]

2،1. الوضعية السياسية والإدارية:

بعد احتلال الجيش الفرنسي للشرق الجزائري ووصوله إلى مدينة بسكرة، بدأ يفكر في بسط نفوذه على الجنوب الشرقي من بوابة احتلال مدينة تقرت، فتم له ذلك بتاريخ 02 ديسمبر 1854 م، بعد أن مهد لها بمعركة لمقارين الكبرى يوم 29 نوفمبر 1854 م.

وبعد سقوط مدينة تقرت نصّب العسكريون الفرنسيون علي باي الداودي آغا على تقرت، إلا أن الوضع الأمني لم يستتب في المدينة، حيث بقيت تقرت وضواحيها مجالا حيويا لرجال المقاومة، وقاعدة خلفية تزود الثوار المتمردين على الوجود الفرنسي، وعلى رأسهم محمد بن التومي الملقب ببوشوشة الذي كان له صولات وجولات جهادية في مدينة تقرت وضواحيها مع مجموعة من الثوار، إلى أن استطاعوا خلع علي باي وتنصيب بوشوشة آغا مكانه، الذي تنازل بدوره عن الحكم لأحد معاونيه، ورغم محاولة علي باي استرجاع منصبه إلا أنه انهزم أمام أنصار بوشوشة.

وبعد هذه الحادثة تأكد الاستعمار أن العملاء لن يضمنوا له الأمن والاستقرار لجاليته الوافدة من مختلف الأصقاع، وتيقن أن السيطرة على تقرت لا تتم إلا بتمركز قوات عسكرية فرنسية بها تعمل على تطهير الأعيان الذين يناوئون الوجود الاستعماري، والذين يرفضون الهيمنة الأجنبية على مدينتهم، واستبدالهم بآخرين موالين للفرنسيين وأتباعهم، ومن منطلق هذه القناعة جهز الجنرال دولاكروا delacroix بتاريخ 02 أفريل 1872 م جيشا جرار اكتسح به ورقلة ثم زحف على تقرت، وانتزعها من مؤيدي بوشوشة بعد معركة شديدة الوطيس على جنود دولاكروا، واعتقل مجموعة من أعيان المنطقة الثوريين، ونفاهم إلى (كيان) بكاليدونيا الجديدة جراء تمردهم على السلطات الفرنسية.[2]

بعد ما تمكنت السلطات الاستعمارية من احتلال بقية الأقاليم الصحراوية النائية، خمدت ظاهريا الثورات والانتفاضات الشعبية، التي كانت تقلق الوجود الاستعماري بالمنطقة، شرعت في اتخاذ إجراءات تنظيمية لفرض الهيمنة المطلقة على الإقليم، والتحكم في الأوضاع، والتصرف في رقاب الأهالي، ومراقبة تحركاتهم المشبوهة، لقمع كل انتفاضة أو ردة فعل تهدد أمن الجاليات الأوربية المستوطنة بالجهات الجنوبية، أو تقلق الرعايا والعملاء، فصدر مرسوما مؤرخا في 31 ديسمبر 1902 م، يتضمن إنشاء الأقاليم العسكرية بالجنوب الجزائري، وبموجبه أصبحت تقرت منطقة من المناطق العسكرية، على رأسها حاكم عسكري برتبة ضابط مقيم بتقرت.[3]

2،2. الوضعية الاجتماعية:

على غرار كافة مناطق التراب الوطني فإن الاحتلال الفرنسي للجزائر خلّف وضعا اجتماعيا صعبا، تمثل في انتشار الفقر والفاقة بعد استحواذ المستعمر على خيرات البلاد وسيطرته على الممتلكات العامة وحتى الخاصة، وهيمنته على الوظائف والمناصب الحساسة ومراكز القرار.

فبعد وضع تقرت كمنطقة عسكرية بموجب المرسوم المشار إليه سابقا، واستتباب الأمن فيها نشطت حركة الاستيطان إلى هاته المنطقة الحيوية، سواء من المعمرين الفرنسيين أو من الجاليات الأوربية من إسبان وطاليان وغيرهم، فاستحوذ المستوطنون على أهم المناطق الفلاحية والسكنات الاستراتيجية، وأجبروا الأهالي على العمل عندهم كخدم أو عبيد، يقتاتون من فتات ما يقدم لهم المستعمرين، وذاقوا منهم ويلات الظلم والاحتقار والاستبداد، مما جعل الكثير منهم يعيش تحت طائلة الفقر والجوع، فبالكاد يؤمن ما يكتسي به أو يسد به رمق الجوع.

وما زاد الوضع شدة بمدينة تقرت اعتبارها منطقة عسكرية، إذ أصدرت السلطات الاستعمارية ترسانة من القوانين الجائرة، والإجراءات الوقائية الظالمة، جعلت من أهالي تقرت يعيشون في سجن عسكري دائم، ومحتشد وقائي يُحظر فيه على الأفراد والجماعات التنقل داحل الوطن إلا برخصة من السلطات

العسكرية، ويُمنع التجمع إلا بموافقة الحاكم العسكري، وتحت رقابة صارمة من السلطات، وأعوانهم المأجورين، مما زاد من درجة الظلم والاحتقار.[4]

2،3. الوضعية الدينية:

أهم ما كان يميز الحياة الدينية لتقرت بعد الغزو الفرنسي أمرين اثنين: أولهما انتشار التصوف والبدع والخرافات، وثانيهما حملات التبشير والتنصير.

أ- انتشار الصوفية والبدع والخرفات:

دون الخوض في الجدل حول دور الطرق الصوفية بعد الغزو الفرنسي، هل كان دورا معاونا للسلطات الاستعمارية، مساعدا مؤازرا لها، أم كان دورا مخادعا مموّها لها، يظهر التعاون والرضا ويبطن العداوة والبغضاء، فهذا الأمر يطول التحقيق فيه، وليس هذا مجاله، لكن المؤكد أن السلطات الاستعمارية كانت تعتبر الزوايا الصوفية مصدر أمان، وتثق ثقة مطلقة في شيوخها ومريديها، كما انتشر آنذاك التصوف السلبي، الذي يعتمد على بث الجمود والركود، وممارسة الشعوذة والدروشة، ونشر البدع والخرافات، واتباع الدجل والخزعبلات ...، وذلك بدعم وإسناد من السلطات الاستعمارية، والتي وجدت في ذلك سبيلا لتجهيل المجتمع وتغييبه، ومحاربة كل حركة للإصلاح والتنوير.

ومن أشهر الطرق التي كانت منتشرة آنذاك نذكر:

الطريقة التجانية: وهي طريقة صوفية ظهرت بالجزائر على يد مؤسسها في أواخر القرن الثامن عشر الشيخ أبو العباس أحمد التجاني[5]، وعرفت انتشارا واسعا بمنطقة وادي ريغ بفضل الحاج علي التماسيني[6]، الذي أدخل الطريقة إلى المنطقة، فانتشرت في أغلب مناطق وادي ريغ، وبخاصة في تماسين موقع الزاوية الأم، وعرفت شهرة واسعة في القرن العشرين، خاصة في عهد الشيخ أحمد التيجاني[7].

الطريقة القادرية: تنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني[8]، وتحتل المرتبة الثانية في منطقة وادي ريغ، ولها زاوية بتقرت، وهي الزاوية الهاشمية[9]، لكنها تابعة للزاوية الأم بوادي سوف.

الطريقة الرحمانية: تنسب إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري[10]، وتتواجد بتقرت والمقارين وجامعة ووغلانة، وكان لها عدد معتبر من المريدين بتقرت، كما كان لها زاوية بمنطقة تمرنة بالقرب من جامعة.[11]

الطريقة الطيبية: وتنسب إلى الشيخ عبد الله الشريف[12]، وهي الطريقة الأقل انتشارا في وادي ريغ، بحيث يقتصر وجودها على مدينة تقرت لوحدها، إذ كانت لها زاوية صغيرة بها، ولم يكن لها عدد كبير من المريدين مقارنة بالطرق الأخرى.[13]

ب- نشاط حركة التبشير والتنصير:

سعى الاستعمار الفرنسي من خلال حملات التبشير والتنصير إلى تحويل الجزائريين عن ديانتهم الإسلامية ومسخ عقيدتهم وثوابتهم الإيمانية، فالاستعمار هدف إلى غايتين أساسيتين: غزو الأرض والذي أُسند للعسكريين، وغزو الفكر والذي أُسند للقساوسة ورجال الدين، وفي هذا يقول المبشر المشهور الكاردينال لافجري: " إن عهد الهلال في الجزائر قد ولى وقُبر، وأن عهد الصليب بدأ، وأنه يستمر إلى الأبد، وأن علينا أن نجعل من الأرض الجزائرية مهدا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدينة منبع وحيها من الإنجيل ... تلك هي رسالتنا الإلهية "[14].

أما بمدينة تقرت فقد كان تركيز حملات التبشير فيها على الجانب النسوي، لما للمرأة من عاطفة وضعف ديني، فأوكلت عملية التبشير إلى اليسوعيات الراهبات البيض والزرق، وذلك من باب تقديم بعض الخدمات الصحية والتعليمية، فتشير بعض المصادر إلى أن قدوم أول فوج من اليسوعيات إلى مدينة تقرت كان سنة 1929 م، وبعضها تنص على قدومهم سنة 1932 م، وكانت مهمتهم منحصرة في ميدانين:

الميدان الصحي: بفتح عيادة صحية وتقديم بعض الخدمات الطبية للسكان، خاصة مجال التوليد ورعاية الأمومة، ومنها الجمعية الخيرية لليسوعيات بالنزلة.

الميدان التعليمي المهني: وذلك بإنشاء مدارس ومراكز للتكوين المهني، منها المدرسة المختصة في فنون التدابير المنزلية للإناث Ecole ménagères. [15]

2،4. الوضعية الثقافية:

أما عن الحالة الثقافية فإنه في الواقع أن الاستعمار الفرنسي قدم إلى الجزائر من أجل تحويل الجزائر إلى ولاية فرنسية، وعليه فقد عمل على طمس الهوية الوطنية والمقومات الثقافية، والعمل على احتواء الحضارة العربية الإسلامية للدولة الجزائرية وتقويضها، فحارب كل مظهر من مظاهر التعليم العربي الحر في الجزائر، واستحوذ على كل مرفق أو هيكل تعليمي، رأى فيه فعالية وحيوية تنويرية جادة، وفرض تعليما خاصا بالجزائريين، وتكوين أجيال موالين له، وكان هذا التعليم مقتصرا على فئة من العملاء وبعض الأسر، بينما كانت الأغلبية تعيش في غيابات الجهل والأمية، ففي بعض الإحصائيات أنه حتى سنة 1882 م كانت نسبة التعليم في الجزائر بمعدل واحد من لكل ألف تلميذ جزائري.[16] وإذا ما كان هذا هو المعدل الوطني فإن المعدل في الجنوب الجزائري والمناطق الصحراوية – التي كان المستعمر يعتبر سكانها حفاة عراة وهياكل بشرية سائمة – سيتضاءل كثيرا.

فلم يقم المستعمر الفرنسي بفتح مدارس تعليمية بتقرت إلا لَما كثر عدد المعمرين وحراسهم من جنود الاحتلال، احتاجوا لمن يخدمهم ويقضي مآربهم ومآرب أسرهم، فاضطروا إلى فتح مدارس تعلم لغتهم،

وتدرب تلاميذ الأهالي على الأشغال التي سيمارسونها في بيوت المعمرين، ففتحت أول مدرسة في أواخر القرن التاسع عشر بوسط المدينة، وعندما تحولت المدرسة إلى سكنات عوضت بمدرسة أخرى تابعة للبلدية المختلطة عام 1916 م، وفي عام 1932 م فتحت المدرسة الأهلية " ecole-indigéne " أبوابها أمام أبناء الأهالي وجمعت بينهم وبين بعض أبناء الأعيان والموظفين في سلك الإدارة والمقربين من السلطة العسكرية، وفي عام 1946 م تحولت المدرسة الأهلية إلى مدرسة للتعليم العام، بحيث إذا وصل التلميذ فيها مستوى السنة السادسة أو السابعة من التعليم الابتدائي يتقدم للامتحان التوجيهي فإن نجح يوجه إلى مدرسة التعليم الفرنسي الإسلامي franco-musulm بقسنطينة.[17]

وتجدر الإشارة إلى أن الغاية من إنشاء هذه المدارس على قلتها هو ترسيخ الثقافة واللغة الفرنسية، ومحو كل آثار الهوية العربية والإسلامية للمجتمع الجزائري، وقد جاء في إحدى التعليمات التي صدرت في سنوات الاحتلال الأولى: " إن إيالة الجزائر لم تصبح حقيقة مملكة فرنسية إلا عندما تكون لغتها هي اللغة الفرنسية، والعمل الجبار الذي يجب علينا إنجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي بالتدريج، إلى أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة الآن "[18]

من هذا المنطلق كانت سياسة التعليم الاستعمارية تهدف إلى:

- محاربة اللغة العربية واعتبارها لغة أجنبية في الجزائر.
- فرنسة التعليم في جميع مراحله.
- تشويه تاريخ الجزائر والتشكيك في وجوده وانتمائه العربي الإسلامي.
- إهمال تدريس جغرافيا الجزائر، والتركيز على تدريس جغرافيا فرنسا وإبراز عظمتها.

3. تأسيس مدرسة الفلاح الحرة

بالرغم من الظروف الاجتماعية الصعبة التي كان يكابدها أهالي تقرت إبان الغزو الفرنسي، والحصار العلمي والثقافي الذي فرضه المستعمر الفرنسي لطمس الهوية الجزائرية العربية المسلمة، إلا أن نور العلم والدين لم يأفل يوما في هذه البلدة، ولم تخل أزقتها يوما من رجال مخلصين ومشايخ واعين مستيقظين، يتابعون عن كثب ما يجري على يد المعمرين وأعوانهم، ويستقرئون حال المجتمع وما آل إليه من تذمر نفسي، وتخلف ثقافي، وتشتت اجتماعي، وضعف اقتصادي، فبادر بعض هؤلاء إلى التحرك تحت غطاء البحث عن العمل والهجرة للتعلم، فمنهم من انتقل إلى قسنطينة، ومنهم من انتقل إلى الجزائر العاصمة، ومنهم من سافر إلى تونس، وفي مواطن هجرتهم ومواقع عملهم احتكوا بالوطنيّين والمصلحين المقيمين في تلك الحواضر، وبهذه التنقلات والتحركات تبلورت الفكرة الوطنية في أذهانهم، وعند رجوعهم

إلى مدينة تقرت عزموا على العمل، واستعدوا لخوض معركة التنوير والمواجهة مع الاستعمار، وساعدهم في مهمتهم الجديدة رجال كان لهم مكانة لدى الإدارة الاستعمارية بحكم وظائفهم.

كان على رأس هؤلاء المخلصين الشيخ الحشاني العمري الذي درس بالزيتونة ورجع منها بشهادة التطويع، والشيخ أحمد جاري الذي درس بالمدينة المنورة ودرّس بها ورجع منها بإجازة التدريس، وبمعاونة ومؤازرة الطالب بشير بكالة (الطالب بابا)، وتحت حماية وغطاء شيخ الزاوية التجانية الشيخ أحمد التجاني، الذي كان مؤتمنا عند السلطات العسكرية، تم تأسيس جمعية الفلاح الدينية الخيرية، التي مثلت واجهة إدارية مكنتهم من فتح مدرسة عربية حرة، فكانت خطة محكمة فوّتوا بها الفرصة على الأجهزة العسكرية، التي كانت تمنع نشاط جمعيه العلماء بهذه الديار، فبفضل هذه الجمعية التي استقطبت شخصيات لها حظوة لدى السلطات العسكرية والمدنية، ولا تشك في ولائهم لها، تم إعلان تأسيس مدرسة الفلاح الحرة، حيث فتحت أبوابها لأبناء تقرت عام 1946 م[19].

ولقد رفضت السلطات الاستعمارية منح الترخيص لنشاط مدرسة الفلاح في بداية الأمر، متحججة بالطبيعة العسكرية لمنطقة تقرت، لولا الوقفة الشجاعة للشيخ أحمد جاري؛ الذي هدد السلطات العسكرية بالذهاب إلى العاصمة والانضمام إلى الحزب الشيوعي ـ الذي داع صيته آنذاك، وكان له نفوذ عند السلطات الفرنسية ـ واستصدار الرخصة بقوة القانون، فرضخت السلطات العسكرية، وسلمت الرخصة لممارسة نشاط التعليم العربي الحر بمدرسة الفلاح.[20]

وذكر رئيس جمعية العلماء المسلمين شعبة تقرت أن اسم الجمعية في الوثائق الرسمية هو جمعية الفلاح العربية الحرة، وأن أصل فكرة هذه الجمعية والمدرسة يرجع إلى العلامة الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله لما مر بمدينة تقرت قادما إليها من مدينة الوادي، بعد أحداث (هَدّةُ سوف) المشهورة سنة 1936 م، حيث استقبله بعض طلبة العلم بمدينة تقرت في محطة القطار، والتي كان ينطلق منها نحو قسنطينة فاجتمعوا به في هذا المكان، فتداولوا معه مسائل الإصلاح والتغيير والنهوض بالمنطقة، فما كان من الشيخ إلا أن اقترح عليهم أن يبدؤوا ببناء أو تكوين مدرسة، وفعلا كانت هذه هي الفكرة التي بدأ منها هؤلاء الشباب القادمون من جامع الزيتونة في ذلك الوقت.[21]

وتشير بعض المصادر أن الأرض التي شُيِّدت عليها المدرسة ترجع ملكيتها للزاوية التجانية[22]، بينما تذكر مصادر أخرى أن ملكيتها تعود لأحد الخواص تبرع بها للمدرسة[23]، وقد شارك كل سكان تقرت في بنائها وتشييدها بحسب شهادة من عايش الحدث، فمنهم من شارك بماله، ومنهم من شارك بجهده في البناء، ومنهم من شارك في إحضار الحجارة والجبس والطين ومواد البناء المختلفة، وقد رسمت طريقة تشييدها صورة رائعة لوحدة أهالي تقرت وتكاثفهم ومحبتهم لفعل الخير.

وقد كان النشاط الأساسي للمدرسة في بداياته هو تعليم القرآن الكريم وتفسيره واللغة العربية والفقه والحساب، إلى أن التحق بها الأستاذ والشاعر محمد الأخضر السائحي؛ والذي قام بثورة في مناهج وبرامج المدرسة، فأدخل فيها تدريس التاريخ والجغرافيا والأناشيد الوطنية والمسرح، فألف مجموعة من المسرحيات تحارب الجهل والتخلف، وتبث روح الوطنية والهوية في الشباب، كما أنشئت بها فرقة للكشافة الإسلامية بقيادة الشهيد محمد البحري عظامو.

وفي عام 1953 م زار الشيخ البشير الإبراهيمي مدينة تقرت، وأشرف على اجتماع ضم أعيان البلاد وعلمائها، واطلع على مدرسة الفلاح فأُعجب ببرامجها ونظامها، وأمور تسييرها، فاقترح على مشايخها ضمها إلى جمعية العلماء المسلمين، فوقع خلاف كبير بين مؤيد ومعارض للفكرة، إلا أن رئيس المدرسة الشيخ الحشاني العمري فصل النزاع ورجح كفة معارضة الفكرة، حفاظا على وجود المدرسة وعدم غلقها من طرف المستعمر، وأوضح وجهة نظره للشيخ الإبراهيمي بأن الجنوب يختلف عن الشمال، وتقرت تعتبر منطقة عسكرية بحتة ويُحضر فيها أي نشاط للجمعية، فاقتنع الشيخ الإبراهيمي بالرأي السديد، وذهب راضيا مستبشرا بالمدرسة ومشايخها، وهذا ما جعل الكثير من تلاميذ المدرسة يشهدون أنها كانت تنشط ضمن مناهج وأطر جمعية العلماء المسلمين.[24]

وفي حقيقة الأمر فإن أغلب برامج مدرسة الفلاح كانت موافقة لبرامج مدارس جمعية العلماء المسلمين، فيمكن اعتبار أن المدرسة كانت تابعة للجمعية باطنا لا ظاهرا ومعنويا لا إداريا.[25]

واستمرت المدرسة في تأدية رسالتها التعليمية والتربوية دون انقطاع إلى أن أغلقتها السلطات الاستعمارية عام 1958 م عندما اشتد لهيب الثورة التحريرية، وزُجّ بالمعلمين في السجون.[26]

4. التعريف بأشهر شيوخ ومعلمي مدرسة الفلاح وجهودهم

4.1. الشيخ أحمد بن العربي جاري رئيس جمعية الفلاح الدينية[27]:

نشأته ومولده:

ولد الشيخ أحمد بن العربي جاري سنة 1898 م، في حاضرة مستاوة التاريخية، في عائلة متواضعة الحال تعيش من عمل يدها، لا يُعرف عن أصولها شيء سوى أنها من عائلات المجاهرية؛ الذين جاوروا تقرت منذ أمد بعيد، وهو لا يزال صبيا هاجرت أسرته إلى أرض الحجاز، واستقرت بالمدينة المنورة، وكعادة الآباء دفع الأب ابنه إلى الحلقة القرآنية بالمسجد النبوي، فحفظ القرآن الكريم وهو لا يزال غضا يافعا، بعدها انتقل الى حلقات الدروس العلمية، يكرع من العلوم الشرعية من عقيدة وتفسير وحديث وأصول فقه، ويتعلم علوم العربية من نحو وصرف وبلاغه وأدب، ومن أبرز شيوخه الذين أخذ عنهم وتتلمذ على أيديهم: الشيخ الجليل حمدان الونيسي الجزائري نزيل المدينة المنورة أستاذ ابن باديس في الإصلاح، والمحدث الثقة الشيخ فلاح اليمني، وغيرهم من مشايخ المسجد النبوي.

نشاطه العلمي والإصلاحي:

عندما اشتد عوده واستقامت له المادة العلمية أجازه شيخه اليمني، فعينه أمير المدينة إماما خطيبا ومدرسا لمسجد الغمامة المبارك، لكن لم يطل به المقام في هذه الوظيفة، فقبل أن يتم السنتين قامت ثورة الشريف حسين ضد الاتراك، فأُبعد إلى دمشق الشام مع من أُبعد من العلماء المغاربة، ولما حل بدمشق انتظم في سلك المدرسين بالمدرسة السلطانية؛ التي كانت تعد بمثابه معهد عالي آنذاك، فالتقى هناك بالشيخ البشير الإبراهيمي، وتزامل معه في العمل، وتعرف عليه عن قرب، وكذا الأستاذ الداعية الشيخ علي طنطاوي، واللغوي المقتدر الأستاذ عبد القادر المبارك الجزائري الأصل.

وبعد سنتين قضاهما بدمشق عاد إلى المدينة المنورة بعد انفراج الأزمة وانهزام الأتراك، ولم يدم بقاؤه طويلا بالمدينة، فسرعان ما تغيرت الأوضاع، ودخل الحجاز في حروب داخليه بين عبد العزيز آل سعود والشريف حسين، فعاد إلى الجزائر في العقد الثاني من القرن العشرين كبقية الأعلام المهاجرين؛ كالطيب العقبي والبشير الإبراهيمي ورضا حوحو وغيرهم، فحط الرحال بمدينة تقرت مسقط رأسه وموطن أقربائه، فوجد الوضع الاجتماعي والثقافي صعبا للغاية، فضلا عن الرقابة الاستعمارية المشددة على كل من يتحرك في اتجاه بعث الروح العلمية في الناس وإحياء الهوية الوطنية، فلم يجد أحمد جاري في بداية الأمر زاوية تحتضنه، ولا مسجدا يورّث به علمه الذي حصّله، فلم يحظ بالاستقبال كما حظي به الطيب العقبي في بسكرة، ولم يجد مَن يؤازره كما وجد الإبراهيمي في إقليم سطيف.

لم يركن الشيخ أحمد جاري للوضع الحالي، واجتهد في البحث عن وسيله تمكنه من الوصول إلى قلوب الناس وعقولهم، دون أن يلفت انتباه عيون الرقابة، فاختار الانضمام إلى الزاوية القادرية الهاشمية، المؤتمن على نشاطها من قبل الحكام العسكريين من جهة، ومن جهة أخرى فإن الزوايا كانت في ذلك الزمان هي وجهة سواد الأمه، فانتمى الشيخ أحمد جاري تقية إلى الزاوية الهاشمية، وكانت الطريقة القادرية أقرب طريقة لرجال الإصلاح من غيرها في منهجها الوطني والتربوي، وأسلم في توجهها العقدي، وأقرب للسلفية السنية التي كان ينتهجها العلماء المصلحون، فعمل وكيلا على الزاوية، نائبا عن شيخها ـ المقيم بوادي سوف ـ في تسير شؤونها العلمية، وفي نفس الوقت انتصب مدرسا بها، فكان يدرس الحديث والتفسير والفقه لطلابها؛ الذين يقصدونها من كل فج، ويستفتيه أتباعها؛ الذين يزورنها من كل الجهات ليتبركوا بها.

في هذه المدة التي قضاها مدرسا بالزاوية أخذ عنه عدد كبير من روادها، الذين كان لهم شأن في المجتمع التقرتي، وأصبحوا من متفقهي مدينة تقرت، ومنهم من كان النواة الأولى لمعلمي مدرسه الفلاح الحرة بعد تأسيسها، ومنهم من دشنت بهم المدرسة الجزائرية التعليم العربي بعد الاستقلال: كالشيخ أحمد

غانم، والشيخ المكي باباساسي، والشيخ محمد الطرابلسي، ومحمد الصغير التومي، والطيب مزوار، والطالب المشري بن خدوجة، والطالب بلقاسم بوليف، والطالب محمد بن أحمد بن ناصر بن حامد وغيرهم.

وفي عام 1934 م شارك في مناظرة علميه نظمتها الشؤون الأهلية لعدد من الفقهاء لتعيين إمام للمسجد الكبير بتقرت بعد وفاته إمامه الرسمي، وكان موضوع المناظرة أن يُعِدّ كل واحد خطبة في الأخلاق ويلقيها أمام الحاضرين، فارتجل الشيخ الخطبة، فكانت أبلغ وأجمل خطبة، ففاز في المناظرة بتفوّق، فَعُيّن إماما خطيبا بالمسجد الكبير بجانب الشيخ الطاهر العبيدي الذي كان مدرسا به، وبالرغم من انتمائه للموظفين الحكوميّين واصل مهمة التعليم بالزاوية والإشراف على تسييرها.

وفي عام 1946 م عندما تم تأسيس جمعيه الفلاح الدينية الخيرية، عينه أعضاؤها رئيسا لها، وكان داعما كبيرا وسببا مباشرا في تأسيس مدرسه الفلاح تحت غطاء الجمعية المعترف بها قانونا، وأصبح الشيخ أحمد جاري مدرسا بها، يؤازر مديرها الأول الشيخ الحشاني العمري مدة من الزمن، واستمر الشيخ في نشاطه المتعدد إماما خطيبا، ومعلما بالمدرسة، ورئيسا للجمعية الدينية، ووكيلا بالزاوية.

كان الشيخ جاري رجلا مسالما وديعا، ويأبى الوقوع في المواقف الحرجة التي تمس الأشخاص، يحب الهدوء ويكره الظهور والشهرة، وينشد السلام والعفة مع أقرانه، وفي نفس الوقت لم يكن سهلا فقد رفض أن يكون وسيله تستعملها الإدارة الاستعمارية عندما تمس المقدسات، يثور وينفعل وينتفض في وجه كائن من كان، فقد وقف في وجه السلطات العسكرية، ولم يرضخ للأوامر التي تصدرها، ورفض كل عمل يكيد للإسلام والمسلمين، ورفض التعامل مع الحكام العسكريين وأعوانهم، رغم كل الإغراءات التي قُدِّمت له.

ومن المواقف الشجاعة التي لا تنساها له مدينه تقرت، حين ترأس جمعيه الفلاح طلبت منه السلطة الحاكمة السير في ركابها والتخلي عن فكرة الإصلاح مع البقاء في الزاوية والاحتفاظ بوظيفته في الإمامة، فرفض هذه المساومة وأجابهم إجابة صريحة: " لا أترك أبناء بلدي أميّين، وأتمتع دونهم بالعيش الزائف، فإني أختار العزل من الوظيفة على أن أخون الثقة التي وضعها في إخواني "، وواصل عمله الإصلاحي غير آبه بما عُرض عليه من زخرف الدنيا.

وعندما رأت السلطة العسكرية تصميمه وإصراره على اختيار طريق الإصلاح الذي يناقض طريقها، وتزايد الوعي في الناس وانتشر التعليم، شعرت أن الفكر الوطني يزحف ويتوسع، أخذت في وضع العراقيل أمام الجمعية لإفشال عملها وعرقله انطلاق التعليم العربي الحر، على غرار ما يحدث عبر التراب الوطني، فرفض الحاكم العسكري الترخيص للجمعية بفتح المدرسة، فقابل الشيخ الحاكم العسكري بكل شجاعة وصارحه قائلا: " إذا لم تستلم الجمعية التي يرأسها الرخصة، فإن أعضاءها سيعلنون انضمامهم إلى الحزب الشيوعي، وستفتح المدرسة باسم الحزب والقانون "، فكان الشيخ على علم أن الحزب الشيوعي قوي داخل المنظومة السياسية الفرنسية، وله قدرة على مواجهة الإدارة، خصوصا في تلك المدة التي علا

فيها كعب الجبهة الشعبية، فعندما سمع الحاكم هذا التصريح من الشيخ لم يسعه إلا أن أفرج عن الرخصة وسلمها للشيخ مكرها، ففتحت المدرسة أبوابها بفضل صمود وشجاعة وحكمة الشيخ أحمد جاري.

كما كانت للشيخ مواجهات شديدة ومناظرات مطولة مع أقطاب التبشير في الجنوب الجزائري أمثال المستشرق الأب " فوكا "، الذي وقف له بالمرصاد، وحاجزا منيعا أمام أهدافه التبشيرية، فباءت كل أعماله بالفشل الذريع على يد الشيخ أحمد جاري وأمثاله.

وهذا ما طمأن الشيخ محمد خير الدين لما زار مدينة تقرت موفدا من الشيخ عبد الحميد بن باديس، لتفقد أحوال الأمة في الجنوب، ودراسة وضع الحركة التبشيرية التي تهدد المنطقة، فقال: " كنا متخوفين جدا من مقالب وحيل المبشرين، لكن عندما وقفت على نشاط الشيخ جاري وزملائه ارتحت، ولم يعد الموقف مخيفا كما كنا نظن ".

عزلة الشيخ ووفاته:

بسبب صمود الشيخ أحمد جاري وشجاعته، وفشل السلطات العسكرية في ثنيه عن مساعي الإصلاح والتنوير، عملت على تشويه سمعته بين العوام، وأثارت حفيظة الأهالي عليه، ودست له من يفسد عليه نشاطه، خاصة بعد أن عطلت السلطات الاستعمارية سنوات الثورة التحريرية كل الجمعيات، ومنعت العمل الخيري نهائيا، فانزوى الشيخ أحمد في بيته.

وبعد الاستقلال عُزِل الشيخ جاري عن الإمامة بإيعاز من البعض بتهمة أنه كان موظفا حكوميا رغم مواقفه الشجاعة والبطلة، مع أن كثيرا من الأئمة أمثاله احتفظوا بوظائفهم بعد الاستقلال، وبعضهم تذرع أن الشيخ أصبح مسنا وصاحب سلس تُكرَه إمامته، والحقيقة المرة أن الدافع من وراء حملة القوم على الرجل ثم عزله مبررات واهية، والحسد والخوف من أن يلمع اسمه في الدوائر الحكومية، ويعرف القائمون على الشؤون الدينية مكانته العلمية، ويتبين جهل الآخرين، فيعين في رتبة أعلى منهم.

ومن وقتها التزم الشيخ بيته، وعضه الفقر بنابه، وأقعده العجز عن النشاط، خاصة بعد أن ابتلي بفقد ولده الوحيد في حادث مؤلم، فتنكر له تلاميذه وأهله، وانقطع عنه الناس إلى أن وافاه الأجل المحتوم عام 1971 م، وتخليدا لذكراه تم إطلاق اسمه على مسجد كبير يقع بوسط تقرت بين المقبرتين.

شهادات في حق الشيخ:

كان الشيخ أحمد جاري يتمتع بأخلاق عالية وخصال فاضلة، ورجل علم وفقه وحديث من الطراز الأول، شهد له بذلك أقرانه من العلماء والطلاب الذين تتلمذوا عليه، فكان الشيخ إبراهيم بيوض قطب الإباضية في الجزائر يطمئن له، ويحب الجلوس إليه ومحاورته ومناقشته كلما قادته زيارة إلى مدينه تقرت.

كما كانت له محاورات ومراسلات مع شيخ الصحافة الجزائرية إبراهيم أبي اليقظان، ويكفيه أنه زامل الشيخ الطاهر العبيدي وقتا طويلا.

أما عن درجته العلمية فقد قال فيه الداعية السوري علي: " الأستاذ أحمد كان أحفظنا للحديث، وأقوانا حجة في المناظرة ".

4.2. الشيخ الحشاني بن المكي العمري أول مدير لمدرسة الفلاح[28]:

مولده ونشأته:

ولد الشيخ الحشاني بن المكي العمري في سنه 1896 م، في حاضرة مستاوة العريقة، في عائلة متواضعة الحال كباقي الأسر الجزائرية آنذاك، وعندما بلغ الخمس سنوات دفعه أبوه إلى شيخ الكتّاب الطالب بشير بكالة في جامع الملوح، وقد ذاع صيت جديته في تعليم القرآن ومتانة تحفيظه للناشئة، فحفظ الشيخ الحشاني القرآن في سن مبكرة.

وعندما التحق الشيخ الطاهر العبيدي بالمسجد الكبير انضم الحشاني العمري إلى حلقه الشيخ، التي كانت تجمع ثلة من حفظة القرآن يعلمهم مبادئ الفقه وقواعد اللغة العربية، وكان الحشاني من أذكى الطلبة وأسرعهم حفظا للمتون العلمية التي كانت مقرره في حلقات الشيخ الطاهر، كمتن ابن عاشر في الفقه، والجوهرة في التوحيد، والآجرومية في النحو، فاعتنى به الشيخ العبيدي عناية خاصة، وهيأ له كل الظروف لطلب العلم، فحصّل ما شاء الله أن يحصل في وقت وجيز.

ولما بلغ أشده وفي سنة 1929 م التحق بجامع الزيتونة العامر مع مجموعه من أقرانه، منهم الطاهر النون وقويدر بورنان وعبد السلام كافي وحسين عمران، وهناك اعتكف ينهل من شتى العلوم المقررة بالجامع، على أيدي خيرة مشايخ الزيتونة؛ كالشيخ الطاهر بن عاشور والشيخ النخلي والشيخ بالقاضي وغيرهم، وبعد خمس سنوات من الدراسة والجد والكد أجازه أساتذته، وتحصل على شهادة التطويع، فرجع إلى مسقط رأسه تقرت سنة 1935 م.

نشاطه العلمي والتعليمي:

بعد عودة الشيخ الحشاني إلى تقرت لم يجد الطريق سهلا ليقوم بنشاط التعليم كما كان يحلم، فوجد الباب مغلقا في وجه كل من يتصدى إلى محاربة الجهل على منهج الإصلاح، فلم يطل به المقام طويلا بتقرت حيث استدعاه القايد محمد السنوسي إلى مدينة جامعة، لأن القايد كان يحرص على تعليم أبنائه أصول دينهم، وتنشئتهم على القيم الإسلامية، وتزويدهم بالثقافة العربية، فاستضافه في مسجده الذي شيده بجامعة بجوار مسكنه لتعليم أبنائه خصوصا، وتعمير المسجد بالدروس الفقهية لعامة الناس عموما، وبمجرد استقراره بجامعه التزم الشيخ الحشاني بتقديم دروس بعد صلاه العصر للخاصة، فيأخذون عنه الفقه والتفسير والحديث وقواعد اللغة، فكان له الأثر الطيب في كثير ممن جلسوا إليه، حيث صاروا أئمة

في مساجد أحيائهم وقراهم، أما بعد المغرب فيقدم درسا في الفقه للعامة.

ولم يكتف الشيخ بهذا الحد، بل أسس بمسجد جامعة حلقة دراسية للفتيان وطلبة الكتاتيب، يعلمهم مبادئ اللغة العربية والسيرة النبوية والأناشيد التهذيبية، وكان يعامل طلبته معاملة متساوية، فلم يفرق بين الغني والفقير، بل وجد فيه الفقراء عنايه خاصة، بشهادة جميع من جلس لدروسه.

وبعد سنوات قضاها بمدينه جامعة رجع إلى تقرت، فاشتغل بالتجارة، وفي نفس الوقت كان يسعى سعيا حثيثا لتأسيس مدرسة عربية حرة على غرار ما يجري في بقيه التراب الوطني على أيدي رجال جمعية العلماء المسلمين، فاستطاع بحنكته وقوه تأثيره أن يجمع حوله ثلة من أعيان تقرت وضواحيها، وبمؤازرة الشيخ أحمد بن العربي جاري والطالب بشير بكالة استطاعوا تأسيس جمعيه الفلاح الدينية، لتكون واجهة إدارية تمكنهم من فتح مدرسة عربية حرة، وقد فوتوا بها الفرصة على الأجهزة العسكرية، التي كانت تمنع نشاطا جمعيه العلماء بهذه الديار، فبفضل هذه الجمعية التي استقطبت شخصيات لها حظوة لدى السلطات العسكرية والمدنية، التي لا تشك في ولائهم للحكومة الاستعمارية، تأسست مدرسة الفلاح الحرة، فكان الشيخ الحشاني أول مدير لها ومن أبرز معلميها.

وبعد بروز الخط الوطني الذي تعمل في ضوئه المدرسة، وتجلى ارتباطها بجمعية العلماء ارتباطا معنويا، خصوصا بعد زياره البشير الإبراهيمي للمدرسة والاجتماع بمعلميها، بدأ الشيخ الحشاني يتلقى عدة متاعب من خصوم الإصلاح، الذين قادوا حملة للتشنيع عليه أمام السلطات العسكرية، والتضييق على عمل المدرسة، والتقليل من أهميه التعليم فيها، ونصح العوام بمنع أبنائهم من الدراسة بها بذرائع متنوعة، فضاق الشيخ ذرعا بهذه التصرفات والمضايقات فترك المدرسة إلى تلاميذه وغادر تقرت.

وعندما سمع الشيخ البشير الإبراهيمي بمتاعبه، وكان على علم بقدرات الشيخ العلمية وحنكته الإدارية، استدعاه إلى أم البواقي " كاروبير " سابقا، فعيّنه معلما بمدرستها الحرة، ومديرا عليها، ومرشدا دينيا بمسجدها الحر، وقد كان له الأثر الطيب في تلك البلدة المباركة، وبعد سنوات من الجهاد العلمي بأم البواقي عاد إلى تقرت بعد اندلاع الثورة، لكنه لم يعد الى مدرسة الفلاح معلما كسابق عهده، وقد وجدها قد أُغلقت، بل عاد إلى ممارسة التجارة، وتقديم دروس للعامة بمسجد سيدي عبد السلام، واستمر كذلك إلى أن بزغ فجر الاستقلال.

في ظل الاستقلال عينته وزاره الأوقاف إماما خطيبا بالمسجد الكبير خلفا للشيخ أحمد جاري، لكنه لم يصبر على رسالة التعليم فحن للتدريس من جديد، وبعد إصدار مرسوم إدماج المعلمين الأحرار بوزارة التربية كمعلمين وأساتذة مرسمين، تحول الشيخ الحشاني من وظيفة الإمامة إلى أستاذ للغة العربية بالمدرسة التقنية، وفي هذا التحول عاب عليه بعض أصفيائه أن يتحول عن المسجد، وفضلوا له الإمامة والوعظ والإرشاد على مهنة التعليم، فالمسجد الكبير يحتاج إلى أمثاله، وسكان تقرت متعطشون لدروسه

ومواعظه، لكنه لم يأبه برأيهم، مما قلل من تأثيره وفعاليته، وفي الحقيقة أن هذا الاختيار لم يختاه الشيخ الحشاني وحده، بل اختاره كثير من أمثاله ممن رأوا أن تعليم الشباب وتربيتهم أنفع وأشد تأثيرا من تقديم الدروس للعوام في المساجد، ولكلٍّ وجهته ورأيه.

استمر الشيخ في سلك التعليم إلى أن أحيل على التقاعد، حينها رجع إلى المسجد من جديد، وصار يقدم دروسا في الفقه والتفسير للعوام بمسجد سيدي عبد السلام، وأحيانا بمصلى الطرابلسية " الأرقم الصغير "، إلى أن أقعده المرض وحبسته الشيخوخة، فالتحق بالرفيق الأعلى سنة 1984 م عن عمر ناهز الثمانين سنة، ونعاه تلميذه محمد كافي في قصيدة جاء فيها:

نجم منير كــان قبــل يلمــع وصداه من أعلى المساجد يقرع
اليوم قد أفل الضياء فلا ترى من بعده نورا يشـــع ويسطــع
هذا الذي بالأمس كان معلما وعلى المنابر بالشريعــة يصدع

4،3. الطالب رشيد بكالة (بابا) سند المدرسة والمدافع عنها[29]:

مولده ونشأته:

ولد الطالب بشير بن قدور بكالة، المعروف بالطالب بابا خلال عام 1891 م بحاضرة مستاوة بتقرت، في أسرة متواضعة تعيش من عرق الجبين، وعندما بلغ سن التحصيل التحق بالكتاب القرآني بجامع سيدي الملوح القائم بناؤه في وسط مستاوة القديمة، فتولى الطالب دادي تعليمه القرآن كبقية الصبية الصغار، لكنه لم يستمر في الكتّاب فانقطع عن التعلّم قبل أن يختم القرآن، وانتقل إلى المقارين ليعمل ويتكسّب، لكن صغر سنه وطراوة عوده لم يمكنه من تحمل الأعمال الشاقة، فلم ينجح في سعيه، فرجع إلى أهله بتقرت، فأجبره والده على العودة للكتاب لإتمام الحفظ، الذي كان أمل الأسرة وهدفها الأساس، فأطاع والده ورجع عازما هذه المرة على الحفظ، فوفقه الله لذلك، فلم يحول الحول على عودته حتى وجد نفسه حافظا للقرآن عن ظهر قلب تلاوة ورسما على يد الشيخ أحمد بن عظامو.

اعتكافه على طلب العلم:

عندما اشتد عوده، وتفتحت قريحته للتحصيل، وامتلك الأهلية أن يعلم نفسه بنفسه، انكب على قراءة كتب التاريخ الإسلامي، كسيرة ابن هشام، ومروج الذهب للمسعودي، والكامل في التاريخ لابن الأثير، وأسد الغابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، وغيرها من الكتب التاريخية وبخاصة كتب المغازي التي كان يستعيرها من مشايخه، وصار يتنقل من مسجد إلى مسجد يتصيد الحلقات العلمية، ويحتك بالعلماء فأخذ من علمهم، وقد ندب نفسه للعلماء يخدمهم ويرافقهم حتى أصبح كالظل لبعضهم، كما فعل مع الشيخ الطاهر العبيدي.

فعندما نزل الشيخ الطاهر العبيدي بتقرت مدرسا بالمسجد الكبير التزم مجلسه، وغشي حلقاته العلمية، فأصبح لا يفارقه إلا لحاجة ملحة، فينهل من علمه ويستفيد من دروسه اليومية، من فقه وتفسير وحديث، فكان بهذه الصفة التلميذ المريد الملتزم، يرافقه من البيت إلى المسجد، ومن المسجد إلى البيت، حاملا قنديلا يضيء له الطريق وبهذه الصحبة حفظ عنه بعض المتون العلمية المقررة في ذلك الزمان كجوهرة التوحيد، والرجبية في المواريث، والرسالة ومتن خليل في الفقه، والآجرومية في النحو، فضلا أنه عشق شعر العرب وآدابهم، فحفظ عيون الشعر كالمعلقات السبع، وحماسة أبي تمام.

ولما كانت اللغة الفرنسية هي المهيمنة على الإدارة الاستعمارية هيمنة كاملة احتاج الطالب بابا إلى تعلمها، فتعلم اللغة الفرنسية كلغة للعدو، يحدث بها أصحابها، ويخاصم بها حكامها، وفي زمن قياسي تعلمها وصار يتكلمها بطلاقة، ويحاور بها ويكتبها بمهارة، وبذلك جمع بين الثقافة العربية والثقافة الفرنسية وفق المستوى السائد في ذلك الزمان، وبحكم جودته للغة الفرنسية عرض عليه الحاكم وظائف إدارية في الإدارة الفرنسية فرفضها، ولم يفرط في محضرته القرآنية.

لم يكتف الطالب بابا بالتحصيل العلمي فحسب، بل عكف على تعلّم مجموعة من الحرف اليدوية تؤمن له لقمة العيش الكريم، فتعلم النجارة والحدادة وتصليح الساعات، غير أن هذه الحرف لم توفر له في البداية العيش الكافي في بلدة تقرت فخرج منها عام 1917 م، وحط الرحال بعين بريش بنواحي الجلفة، وبعد سنوات من الغربة في طلب العيش، تحسنت حالته المادية فعاد إلى أرض تقرت، وفيها انتصب يعلم القرآن لأبناء حي المجاهرية بجامع الملوح، بعد أن غادره شيخه أحمد بن عظامو.

وكان ببعد نظره الثاقب وتفتحه على الحياة وذكائه المفرط، قد أدخل أسلوبا جديدا في تعليم النشء، ومنهجية مبتكرة لم يُسبق إليها، فكان رحمه الله بالإضافة إلى تعليم القرآن والمتون الفقهية الأساسية كابن عاشر والجوهرة؛ كان يعلم التلاميذ الأناشيد الدينية والأخلاقية والوطنية ويدرسهم على انشادها في المناسبات.

ولم يتوقف عند هذا الحد من التطوير بل فتح ورشة في بيته لتمرين بعض التلاميذ الذين رأى فيهم الاستعداد لتعلم الحرف، فمرن بعضهم على تصليح الساعات، وبعضهم على الحدادة، وبعضهم على النجارة، وبعضهم على الحياكة والطرز، وبعضهم على الصباغة والزخرفة ... وبهذا العمل الإضافي يكون الطالب بابا قد سبق المعمرين في إنشاء التعليم التقني والمهني بتقرت، وجعل من مدرسته مركزا يتكون فيه التلاميذ تكوينا دينيا ووطنيا ومهنيا.

وقد حفظ على يديه عدد ما شاء الله من حفظة القرآن مثل: الطاهر النون، أحمد غانم، عبد السلام كافي، ومحمد كافي الملقب بالذيب، والمكي بورقعة من الجيل الأول، ومن الجيل الثاني: حسين السنوسي،

ومحمد كافي، وشقيقه علي كافي، ومحمد بورقعة، وعبد المجيد كافي وغيرهم، كما تعلم على يديه عدد هائل من الحرفيين في الصنائع اليدوية، عمرت بهم تقرت وصاروا مضرب المثل في الإتقان وجودة الصناعة.

مواقفه وجهوده:

عندما انتشر الفكر الإصلاحي في ربوع الوطن على أيدي الروّاد الأوائل من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ووصلت بركة الإصلاح إلى عاصمة الزيبان بسكرة النخيل، التي كانت بوابة الصحراء الشرقية، ومحضن رجال الإصلاح أمثال العقبي وخير الدين والعمودي وغيرهم، انتقلت العدوى إلى تقرت بعد الحرب العالمية الثانية، فكان الطالب بابا من السباقين لاحتضان فكرة الإصلاح والسعي لإنجاحها، حيث كان صوتها الجهوي بمدينة تقرت، ما خاف فيها لومة لائم، وبالرغم من تواضع علمه، وضعف حاله المادي، فقد كان عضوا عاملا وعنصرا نشيطا في جمعية الفلاح التنويرية، واليد اليمنى لرئيس الجمعية، يضرب بها خصومها ويواجه بها الأعداء والمثبطين.

وقد تحمل من أجل الإصلاح هجر الأحباب وتنكر الأصدقاء الذين لم يقتنعوا بمؤازرته لهذه الجمعية، التي ربما تكون سببا في وأد التعليم القرآني في تصورهم، فضلا أنها تصدر عن فكر إصلاحي معادٍ للنخبة المهيمنة على عقول الناس، وتتبذ الشعوذة والجمود، الأمر الذي يتنافى ورغبة بعض الجامدين الذين لا يريدون لغيرهم أن يتعلموا علما صحيحا، للمحافظة على مستوياتهم في المجتمع، فضحى الطالب بابا بكل شيء من أجل التمكين للإصلاح أن يفوز، فبفضل الجمعية التي آزرها ودافع عنها، شجع ذوي اليسار لبذل أموالهم في سبيل تأسيس مدرسة الفلاح الحرة، التي كانت فاتحة خير على أهالي تقرت.

لم يكن الطالب بابا معلما ومصلحا فحسب، بل كان الحارس الأمين لبيوت الله يذود عنها ويحميها من السفهاء، ويذب عنها الأعداء، ويجل ويوقر من يعمّرها، ويدافع عن الضعفاء أمام الأقوياء من ذوي الجاه والسلطان والمال، فلا يرضى أن يُهدر حق لأحد وهو يعلم، ولا تخيفه هيبة حاكم، ولا جور قائد، ولا تجبّر ظالم.

ومن مواقفه التي سجلها له التاريخ وشهد له بها أهل تقرت، موقفه من الحاكم العسكري الذي سمح لفرقه فنية أن تقيم حفلا بجوار المسجد الكبير، ولم يعر أي اهتمام لمعارضة المسلمين وعدم رضا اللجنة الدينية للمسجد، وفي يوم عرض الحفل سبق الطالب بابا المحتفلين إلى ساحة المسجد فهشم بعد الكراسي تحذيرا من مواصلة تنظيم الحفل، وحين وصل المحتفلون واجه رئيسهم وحاوره محاورة الكريم للوضيع، ثم صفعه صفعة أذهلت الحاضرين، فكيف لرجل من الأهالي يتجرأ ويصفع رجلا فرنسيا تحت حماية الحاكم العسكري، فما كان من صاحب الفرقة إلا الانسحاب بفرقته وأعوانه وهو يجر أذيال الخيبة والمهانة، ولما علم الحاكم بالحادثة واحتج صاحب الفرقة عنده على ما لحق به، ما كان جوابه إلا أن قال: " لو كان الأمر صدر عن شخص آخر غير الطالب بابا لكان لي معه شأن، ولما كان من الطالب بابا فليس لي

ما أفعله، لأنني إذا آذيته فقد آذيت تقرت بأكملها ".

وموقف آخر أشجع من سابقه، وفيه ظهر دفاع الطالب بابا عن الإصلاح ورجاله، فعندما زار الشيخ البشير الإبراهيمي مدينة تقرت عام 1947 م، يتفقد أحوال الإصلاح ويجمع التبرعات لبناء معهد ابن باديس، طلب منه أعضاء جمعية الفلاح إلقاء درس توجيهي بالمسجد الكبير، فخاف البعض من مغبة هذا العمل، الذي يغضب السلطات العسكرية التي تمنع نشاط جمعية العلماء بهذه المناطق، ويمس سمعة البعض.

وقف بعض المدفوعين ممن يسيرون في ركاب الحاكم العسكري، ويخافون من الإصلاح أن يعم، فيزعزع وضعهم الاجتماعي، ويزيل الغشاوة من عيون الناس، وقف هؤلاء معارضين لإقامة الدرس وعملوا على إلغائه، وكان من شأن السلطات العسكرية أنها هددت من يحضر درس الإبراهيمي، فتتهمه بالتعاون مع جمعية العلماء وتبني أفكارها، والدعوة لها في هذه الربوع، وتسليط أشد العقوبات عليه، وأوعزت إلى أذنابها من الأعوان والحراس أن يخلوا ساحة المسجد من المسلمين الذين لم يستجيبوا لأمر السلطات، ولم يخافوا وعيد الحاكم.

ولما جد الجد وذب الخوف في قلوب الحاضرين، وقف الطالب بابا وقفة رجولية، أزاحت عن أعين الحاضرين غشاوة الحيرة والدهشة، وكسرت حاجز الخوف، وحركت في نفوسهم التحدي والصمود، فقام في الحاضرين خطيبا وقال: " أيها المؤمنون إن الشيخ الإبراهيمي سيلقي عليكم درسا، يحيي به نفوسكم، ويذكركم بواجباتكم نحو دينكم، فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ولا يخاف إلا الله فليستمع للدرس ولا يخرج، لا تخافوا في الله واحدا كائنا من كان "، ثم التفت نحو الحراس وخاطبهم خطاب الرجل الواثق من نفسه، وبلهجة مملوءة بالتحدي والشجاعة: " إذا أردتم أن تعودوا إلى ذويكم سالمين، وتعيشوا بين الناس محترمين، فاتركونا وشأننا، وإلا سنعلنها حربا عليكم من الآن "، فانصرف الحراس خائبين ولم يفعلوا شيئا، وألقى الشيخ الإبراهيمي درسه، وكان له صدى واسعا في أوساط الأمة.

ونظرا لمكانة الطالب الاجتماعية ومواقفه الشجاعة وهيبته الفطرية، حاول الحاكم استمالته إليه وتقريبه منه بشتى الوسائل والطرق، بالإغراءات المادية والمعنوية، فكانوا لا يرفضون له طلبا، وألبسوه النياشين والأوسمة، ليستعملوه في أغراضهم كما استعملوا غيره، من الذين باعوا أنفسهم وضمائرهم بثمن بخس، لكن الطالب بابا خيّب ظنهم، ولم ينطل عليه خبثهم، ولم تُجْد معه حيلهم ولم ينساق وراء إغراءاتهم، فحفظ دينه وضميره وبقي حرا أمينا.

كما كان للطالب بابا مناظرات ومواجهات مع المبشرين المزروعين في المجتمع التقرتي، ومنهم المبشر الخطير " بيوني "؛ الذي سخر كل إمكانياته المادية والمعنوية والعلمية لتنصير الشباب وتضليلهم، وصرف العائلات الفقيرة عن دينها، فكان الطالب بابا له بالمرصاد، يذبه عن الشباب، ويبعده عن العامة

ويبعدهم عنهم، ويفضحه أمام الخاصة ويحذرهم منه، واستطاع أن يهزمه عمليا، وفوّت عليه كل فرصة تكاد تمكنه من تحقيق بعض أغراضه، وخرج " بيوني " من تقرت، ولم يتمكن من تنصير واحد من أبناء تقرت، ولا تكفير شاب كما وقع في جهات أخرى من الصحراء.

آثـــــاره:

عاش الطالب بابا في جهاد مستمر، فمن التحصيل العلمي إلى العمل؛ إلى الإصلاح؛ إلى القيام بالأعمال الخيرية، فكل هذه المشاغل المتواصلة والأعمال الجليلة التي سجلها على صفحات يومياته لم تسمح له بالتعمق في العلوم، واكتساب المادة العلمية التي تؤهله للتصنيف والتأليف، فضلا عن البيئة المغلقة التي نشأ فيها، ومع هذا فقد ترك مجموعة من المخطوطات العلمية النادرة خطها بيده، كالمصحف الشريف، وبعض المتون الفقهية، فضلا عن خزانة كتبه العامرة بالكتب المطبوعة والمخطوطة، ومنها مخطوط نادر في الأدب والبلاغة للقاضي الفقيه ابن عاصم، صاحب العاصمية في القضاء، إذ لا يوجد من هذا الكتاب إلا نسختان مخطوطتان، واحدة بمكتبة استنبول بتركيا، والثانية بخزانة الطالب بابا حسب رواية الشيخ حمزة بكوشة رحمه الله، وفي أواخر حياته ألّف نبذة مختصرة عن تقرت وأصول بعض الأسر المتساكنة بها، نقلها عنه ابنه محمد بكالة، لكن هذه المخطوطة لم تقع في أيدي المؤرخين، ولم تر النور وبقيت حبيسة خزانة مكتبة الطالب محمد بكالة، وربما ضاعت.

4،4. الأستاذ محمد الأخضر السائحي مجدد برامج المدرسة وصوتها الوطني[30]:

مولده ونشأته:

في شهر أكتوبر من خريف عام 1918 م، في قرية العلية موطن قبيلة أولاد السايح، وُلِد محمد الأخضر بن العلمي السائحي في أسرة كريمة متواضعة الحال، محبة للعلم والعلماء، من أعرق عرش أولاد السايح، الذين انتجع فيهم القرآن الكريم أباً عن جدٍّ، واتسمت حياتهم بالسياحة العلمية.

نشأ في أحضان والده، وعندما بلغ سن التعلم أدخله أبوه إلى الكتاب الذي كان ينشطه الطالب الزاوي السائحي، فحفظ عنه القرآن ولم يتعدّ سنه وقتئذ ثلاث عشرة سنة، وقد ظهرت عليه مخايل النجابة وحب التحصيل، فبالرغم من صغر سنه كان يغشى مجالس الشيخ الطاهر شوشان؛ الذي نزل في العشرينيات من القرن العشرين بالعالية قادما من نفطة، فطاب له المقام بين أهلها، ونهض بينهم بحركة تنويرية هائلة، ينشر بينهم المبادئ الوطنية، ويشجعهم على طلب العلم، كان يستمع إلى أحاديثه في الوطنية، ويستفيد من دروسه التي كان يبثها بين الناس، فتأثر به ونفخ فيه من روحه وهو لازال شابا يافعا، فتكونت لديه رغبه ملحة في طلب العلم، وقد التقى طموحه وهمته العالية في طلب العلم مع رغبة والده، الذي كان يفكر في إرساله إلى المراكز العلمية ليجعل منه رجل علم، فوجد فيه كل الاستعداد.

وقد كانت لوالده علاقة حميمية بالشيخ إبراهيم بيوض، الذي يشرف على مدرسة الشبيبة الحرة بالقرارة، فانتقل به إليها وانتسب إلى المدرسة النظامية كبقية الطلبة على أيدي أساتذة المدرسة المتميزين من أمثال: الشيخ بيوض والشيخ أبي اليقظان أبي الصحافة الجزائرية وغيرهما، ولشدة ذكائه وقوة حافظته هضم البرنامج المقرر لثلاث سنوات في سنتين، وزاد شوقه إلى الاستزادة من طلب العلم، فتاقت نفسه للالتحاق بجامع الزيتونة العامر، الذي كان قبلة لطلاب مدرسة القرارة وغيرهم من طلاب المدارس الحرة والزوايا، وبالرغم من الضائقة المالية التي كان يعانيها والده، التحق عام 1934 م بجامع الزيتونة على غرار زملائه في معهد الحياة، وواصل دراسته بالزيتونة حتى نال شهادة الأهلية، بالإضافة إلى الدراسة النظامية فقد كان له اهتمام كبير بالمطالعة للكتب والمجلات، وحضور الندوات واللقاءات الشعرية والأدبية، ومتابعة النشاط الثقافي.

كما انتظم في سلك الطلبة الزيتونيّين، ودخل في أتون النضال السياسي، فانخرط في الحزب الدستوري، وناضل فيه بمقالاته الحماسية، وشعره الوقاد المثير للحماسة ضد الحماية الفرنسية بتونس، ولما أصبح شعر السائحي ومقالاته نشاطا يزعج المستعمر الفرنسي، أصبح يلاحقه في كل مكان، الأمر الذي دفعه إلى مغادرة التراب التونسي والعودة إلى أرض الوطن متخفيا، هاربا عن عيون المستعمر.

السائحي والعودة إلى الوطن:

دخل السائحي إلى أرض الوطن متخفيا عن أعين السلطات الاستعمارية، التي أجبرته على مغادرة التراب التونسي لانخراطه في الحزب الدستوري، ومشاركته في النضال السياسي، وفور نزوله بمحطه القطار بتقرت اعتقلته السلطات العسكرية وسجنته، ثم أُفرج عنه بوساطة من عمه عبد القادر وشيخ زاوية تماسين، على ألا يشارك في أي نشاط سياسي بعد ذلك.

وبعد خروجه من المعتقل انتقل إلى تماسين فوجد فيها الحماية المعنوية لدى عمه عبد القادر، فانطلق في تحريك الساحة العلمية والثقافية تحت حماية شيخ الزاوية، ثم اندمج في الحركة التنويرية التي بدأت ملامحها تنتشر بالجنوب الجزائري، الذي كان في ذلك الوقت شبه معتقلٍ داخل ثكنة عسكرية، تراقب من خلالها السلطات الاستعمارية أية حركة تنويرية.

مساهمته في الحركة التنويرية:

في بداية الأمر اشتغل يعلم بالزاوية كبقية المدرسين الذين تستضيفهم الزاوية لتعليم أبنائها، وبعد أن هدأت العاصفة وحصل على رخصة الإقامة بوادي ريغ، وسمحت له بالتحرك دون متابعة بفضل تدخل شيخ الزاوية دائما انتقل إلى بلدة عمر، فسعى لتأسيس مدرسة عربية حرة، يستقبل فيها مجموعة من الشبان وبعض الكهول، يعلمهم مبادئ العربية وأصول الأخلاق، ويربيهم على الذوق الأدبي، عن طريق الميران والتدريب على حفظ عيون الشعر العربي، ويقدم لهم دروسا في التاريخ الوطني والإسلامي،

ومبادئ الجغرافيا بقصد تجسيد مفهوم الوطن في أذهانهم، وقد أفاد منه الكثير من أبناء بلدة عمر، ممن انطلق بهم التعليم العربي بعد الاستقلال في تلك الربوع.

ونظرا لصغر القرية ومحدودية التأثير فضّل أن ينتقل إلى مدينة تقرت عاصمة الإقليم العسكري، الذي كان يضم وقتئذ وادي سوف والزاب الغربي (منطقة غرداية وما جاورها)، ليواجه هناك مخططات الاستعمار، ويعبئ أبناء المنطقة، الذين كانوا ينتظرون من ينفخ فيهم روح الوطنية، ويصحح تصوراتهم، فوجد في تقرت حركة تنويرية ينشطها ثلة من العلماء، تنكبوا منهج الحركة الإصلاحية وتشبعوا بأفكارها، أمثال: الشيخ الحشاني العمري؛ الذي احتك برجال الإصلاح أيام كان طالبا بجامع الزيتونة، والشيخ أحمد بن العربي جاري؛ الذي زامل الإبراهيمي بالمدرسة السلطانية بالشام، فكان لهذين الرجلين الفضل في تأسيس جمعية الفلاح الدينية، التي انبثقت عنها مدرسة الفلاح الحرة، فاختار الأستاذ السائحي أن ينضم إلى هذه المدرسة، ويكون من فريقها التربوي، يعلم ويربي ويوجه، وفي وقت قياسي أصبح هو الموجه التربوي، والمدير البيداغوجي الفعلي لها، وواضع برامجها، وحوّل المدرسة إلى منارة للتعليم العربي، وجعل منها الوجه العملي للإصلاح، فأدخل فيها عدة برامج لم تكن تدرّس من قبل، كالتاريخ والجغرافيا، والمسرح، والأناشيد الوطنية، والقصائد الحماسية، وكثير من النشاطات الثقافية والتوعوية.

وفي عام 1947 م طلب منه أعيان تماسين أن يعود إليهم ويساعدهم على فتح مدرسة على غرار مدرسة تقرت، فاستجاب للطلب، ففتح مدرسة حرة في قصر تماسين تحت غطاء مدرسة قرآنية بمعية بعض المعلمين، فتكفل بتدريس اللغة العربية والأناشيد والسيرة والتاريخ والجغرافيا بنفسه، واستعان بالشيخ الصادق التجاني والشيخ السعيد العبيدي فكلفهما بتدريس الحساب والعلوم، وهذا بالرغم من استمرار إقامته بتقرت، فصار يتنقل على دراجته الهوائية من تقرت حيث ينشط الحركة الثقافية والمسرحية والنادي الأدبي في المساء، إلى تماسين حيث مدرسته التي يشرف عل تسييرها في النهار.

والى جانب النشاط التعليمي، أسس جمعية الأمل الثقافية، وجعلها رافدا من روافد مدرسة الفلاح، وذراعا يحرك نشاطاتها المكملة للمواد الدراسية، وصوتها الوطني، المعبر عن القضايا الوطنية، عن طريق المجموعات الصوتية، ينشدون الأناشيد الحماسية التي تمجد الوطن، والقصائد الدينية التي تغرس القيم، وعن طريق تمثيليات تخلد مآثر التاريخ العربي الإسلامي.

إضافة إلى تنشيطه لجمعية الأمل الثقافية، والتعليم بمدرسة الفلاح، وتنقله بين الأماكن الثلاثة، فإنه ساعد وآزر الشهيد محمد البحري عظامو في تكوين فوجا للكشافة الإسلامية، ونسبه لجمعيته الثقافية فسماه فوج الأمل، وبهذا الفوج الكشفي نافس الكشافة التي أسستها الكنيسة بمدينة تقرت، تحت ذريعة التربية والتهذيب في هدفها المعلن، وتوجيه شباب المنطقة إلى الثقافة التي يريدونها في هدفها الخفي.

للأستاذ عدة قصائد شعرية وأناشيد وطنية منها النشيد الذي نظمه لفوج الأمل بتقرت ونصه:

يا شبـاب الوطــن إلى أمانينـا نبني في هذا الزمن صرح معالينا
شعارنا في الصغر العلم والدينـا هيا بنا كالبشــر نحمي مغانينـا
قد سئمنـا الرقـاد يكفي توانينـا نحن ابتسام الزهـر نحن الرياحينا
هيا بنا في اتحاد للمطلب الغالي بالعلم يا ابن الوطن نسعد بآمـالي

وفي قصيدة ترحيبية نظمها لتلاميذ مدرسة الفلاح في استقبال وفد جمعية العلماء برئاسة الشيخ البشير الإبراهيمي يقول:

مرحبا أهلا وسهلا أيهـا الوفـد الجليل
أي فجر قـد أطـلا من محيـاك الجميـل
وهلال منك هـلا هــو للفــوز دليـــل
مشرق الصفحة ضاح ساطعا نور بهاك
في سرور وانشراح نحن في يوم لقــاك
زان أرجـــاء الفلاح أيهـــا الوفـد سناك

ومن المسرحيات التي تعالج الواقع ومثلها فوج الأمل: مسرحية بعنوان السكير الجاهل، وأخرى بعنوان الملكات الضائعة.

واستمر السائحي على هذا العمل الدؤوب والنشاط المتواصل إلى سنة 1952 م، السنة التي انتقل فيها إلى العاصمة، وقد عاش في بداية حياته بالعاصمة أياما عصيبة، إلى درجة أنه لازم المسجد الكبير لتلاوة الحزب الراتب مع الحزابين، عسى أن يتكرم عليه بعضهم باستضافته، إلى أن فتح الله عليه بالعمل في الإذاعة بمساعدة رفيقه الشهيد محمد البحري عظامو.

ورغم عمله بالإذاعة فإنه لم يكن موظفا دائما، بل تسدد له الأجرة على العمل الذي ينتجه أو يقدمه، وبهذا الشكل فإن القيمة المالية المقدمة له تعتبر زهيدة لا تكفي لحاجيات السكن والأسرة، ولم يستقر وضعه المالي إلا بعد ما أُعترف له من طرف لجنة الاعتراف بقدماء المعلمين، تقديرا لجهوده في التعليم قبل الثورة، فالتحق مدرسا باكمالية ابن خلدون في بلوزداد، ومكث بها زمنا، إلا أن التدريس أتعبه فنُقل وانتُدب إلى وزارة التربية للعمل بها بجانب الشيخ الشاذلي المكي والشيخ شيبان إلى غاية تقاعده.

ومنذ استقراره بالعاصمة استمر الأستاذ السائحي في كتابة الشعر والنثر، خاصة في مجال الوطنيات والإسلاميات، الذي أبدع فيه وأجاد، فله حوالي عشر أعمال مطبوعة شعرية ونثرية، منها: همسات وصرخات، لحن الوفاء، جمر ورماد، ديوان الأطفال ...، كما كانت له مشاركات عدة في محافل وطنية ودولية، نال على إثرها جوائز معتبرة، منها فوزه بالمدالية الذهبية في مهرجان الشعر العربي الحادي عشر

الذي أقيم بتونس سنة 1973 م.

4،5. الشهيد محمد البحري عظامو مؤسس النشاط الكشفي بالمدرسة[31]:

ولد محمد البحري عظامو خلال سنة 1924 م بتقرت، أبوه الطالب عظامو وأمه مباركة بن بكري، أدخله والده إلى كتاب البلدة أين تعلم اللغة العربية وحفظ ما تيسر من القرآن الكريم، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية الرسمية، كان محمد البحري يتصف بالذكاء والروح الجماعية والحماسة الوطنية منذ نعومة أظافره، ما جعله يفكر في تأسيس فوج للكشافة الإسلامية بتقرت، فكان له ذلك سنة 1945 م بمؤازرة رفيق دربه محمد الأخضر السائحي، وسماه فوج الأمل، تحت لواء جمعية الأمل التي تعد رافدا من روافد جمعية الفلاح الدينية والمدرسة المنبثقة عنها.

واستطاع محمد البحري عضامو رفقة الأستاذ محمد الأخضر أن يثبتا حضور الكشافة الإسلامية في تقرت، و يشغلا بها الساحة السياسية والفكرية، وقد كان الأخضر السائحي هو صوتها الوطني بتركيباته الشعرية، وعن طريق هذا التنظيم زرع الشهيد محمد البحري عظامو ورفيقه مفهوم الفكرة الوطنية العملية في أذهان الشباب، وبنى في نفوسهم روح البذل والتضحية، ودفع بهم للعمل الوطني، وخوض غمار النضال في الحركة الوطنية، في مختلف أطيافها، وجعلهم يستعدون لليوم الموعود الذي كانت تحضر له الحركة الوطنية، بجميع ألوانها الثقافية والسياسية، فجل الذين قادوا الخلايا الثورية بتقرت وبلدة عمر كانوا من المنخرطين في صفوف فوج الأمل الكشفي.

لم يطل المقام بمحمد البحري عظامو بتقرت، فقد قرر والده أن يصطحبه وسائر أفراد عائلته ليستقروا بالجزائر العاصمة، وبفضل سلوكه الاجتماعي ونشاطه الدؤوب وحبه للوطن، اندمج محمد البحري بسرعة في الوسط الشباني العاصمي، وأقحم نفسه في بيئتهم مما سهل عليه مواصلة نشاطه الوطني، ومن هنا بدأت تحركاته تتزايد، ونشاطه المعادي للاستعمار يتوسع.

في سنة 1955 م انخرط في صفوف المنظمة المدنية بالعاصمة ضمن الخلايا الثورية، التي كان أعضاؤها ينشطون في سرية تامة إلى أن اكتشف العدو أمرهم، وأصبح محمد البحري مراقبا من قبل الإدارة الفرنسية، ومحل متابعة وترصد من طرف شرطتها، إلى أن استشهد عام 1961 م رميا بالرصاص.

5. التعليم القرآني بمدرسة الفلاح وسائله وطرقه

يعد التعليم القرآني من أهم ما يميز مناطق الجنوب الجزائري منذ القدم، فمن تقاليد أهالي هذه المناطق دفع أبنائهم إلى الكتاتيب والمساجد والزوايا لحفظ القرآن وتعلمه منذ نعومة أظفارهم، فلا يكاد يتجاوز الطفل سن العاشرة حتى يكون حافظا للقرآن الكريم أو جزء منه، وعليه فقد كان تعليم القرآن الكريم حفظا وتلاوة وتفسيرا النشاط الأساس، وأهم المواد المدرسة بمدرسة الفلاح، على يد ثلة من المشايخ المتقنين

المجازين من الزيتونة أو الحجاز، أمثال الشيخ الحشاني العمري والشيخ أحمد جاري، وقد تخرج من المدرسة زمرة من خيرة حفظة كتاب الله، تبوؤوا الإمامة والتدريس فيما بعد، وقد ذكرنا بعضهم من خلال الترجمة لأعلام المدرسة.

وكما سبق الإشارة فإن أغلب مشايخ مدرسة الفلاح كان لهم نشاط موازي بالمساجد التي كانوا يشرفون عليها، فالشيخ أحمد جاري كان ينشط بالمسجد الكبير، والشيخ الحشاني العمري كان ينشط بمسجد سيدي عبد السلام، والطالب بابا كان ينشط بمسجد المَلْوح الذي سمي على اسمه شهرة، وعليه فإن وسائل التعليم القرآني وطرقه بمدرسة الفلاح لم تختلف عما كان يسري عليه العمل بالمساجد والكتاتيب.

5،1. وسائل التعليم القرآني بمدرسة الفلاح:

ما طبع التعليم القرآني قديما بساطة وبداءة وسائله، فهي وسائل زهيدة الثمن يسيرة التحصيل، وهذا ما كان يتناسب والحالة الاجتماعية السائدة وقتئذ، ويمكن تقسيم وسائل التعليم القرآني إلى قسمين: وسائل أساسية وهي: المصحف واللوح والقلم والدواة، ووسائل مساعدة وهي: الصلصال، شفرة حلاقة، قلم رصاص.

أ- الوسائل الأساسية:

- **المصحف:** يستعمله التلميذ في عملية التكرار والمراجعة، وقد يستعين به من أجل تصحيح ما كتب على اللوح، ويمنع منعا مطلقا استعماله في الحفظ، ونظرا للطابع المغاربي للمنطقة فإن الطبعة المعتمدة للمصحف هي طبعة الثعالبية لصاحبها رودوسي قدور برواية ورش عن نافع، المرسومة بالخط الكوفي وفيها ضبط الفاء بنقطة من تحت والقاف بنقطة من فوق.

- **اللوح:** ويكون من مادة الخشب وعادة ما يتبرع بها النجارون مجانا للتلاميذ والطلبة، ويصغر حجمها أو يكبر بحسب سن التلميذ ومقدار حفظه.

- **القلم:** ويصنع من القصب ويُبرى بطريقة فنية معينة، بحيث يستعمل بطنه وظاهره في وظيفتين مختلفتين، فيستعمل بطنه للرسم بخط غليظ، ويستعمل ظهره للشكل والضبط بخط رقيق، كما يستعان بالقلم في تحريك الدواة عند جفافها.

الدواة: وتسمى بالعامية (الدواية) وهي علبة صغيرة من زجاج أو بلاستيك أو معدن، يوضع بها مادة صمغية تشبه الحبر، تحضر يدويا، حيث تُقتنى مادة الصمغ (السمق) من العشاب ـ وهي مادة تشبه الخشب الأحمر أو البني ـ فتسحق جيدا وتغربل، ثم توضع على نار هادئة وتحرك حتى تحترق، وبعد ذلك تعجن بالماء وعادة ما يضاف لها قطرة زيت لتسهيل الكتابة بها ومحيها، بعد عجنها توضع بالعلبة

المذكورة آنفا، ثم يوضع عليها بعضا من الصوف ويبلل بالماء، وبعد الضغط على الصوف بالقلم يمزج بالصمغ، وتصبح الدواة صالحة للكتابة.[32]

ب- الوسائل المساعدة:

- **الصلصال أو الطين:** ويستعمل لدهن اللوح بعد محيها، وعند جفاف تمسح قليلا بمادة ورقية ثم يكتب عليها، وغايته تسهيل عملية المحي وعدم التصاق الصمغ باللوح.

- **شفرة حلاقة:** وتستعمل لبري القلم.

- **قلم الرصاص:** ويستعمل لتسطير اللوح، أو لتدريب التلاميذ المبتدئين على الكتابة.[33]

5،2. طرق وأساليب التعليم القرآني بمدرسة الفلاح:

لقد تفطن مشايخ المدرسة إلى مكائد المستعمر الفرنسي؛ الذي اجتهد في إفراغ التعليم القرآني من غايته ومحتواه، إذ سعى إلى جعل الزوايا والكتاتيب أماكن للدروشة والبدع والخرافات، وربط التعليم القرآني بالجانب الروحاني المظهري وفقط، وهذا بغية تجهيل الناس والعبث بعقولهم، وتمرير مخططاته وبرامجه دون رقيب ولا حسيب، إلا أن مشايخ المدرسة بحنكتهم وحكمتهم عملوا على بعث التعليم القرآني من جديد، وإرسائه على أصوله وقواعده الصحيحة، فإضافة إلى الطرق التقليدية المعروفة في تحفيظ القرآن، فقد اجتهدوا في إحياء الجانب العملي من التعليم القرآني، بالحرص على تفسيره وشرح معانيه، وتزكية الأنفس وهداية القلوب بتعاليم القرآن وأحكامه، وحث الناس على العمل بأخلاق القرآن وآدابه، والاستفادة من هدايات القرآن وإرشاداته في حياتهم اليومية.

ومن الطرق التي كانت تنتهج في التعليم القرآني[34]:

- **تعليم الحروف:** وهذا ما يخص التلاميذ الصغار في السن، الذين لا زالوا لم يتعلموا أبجديات القراءة والكتابة، فيقوم الشيخ بكتابة الحروف الهجائية على جهة من لوح التلميذ ولا تمحى هذه الأحرف حتى يحفظها التلميذ عن ظهر قلب، وتتم طريقة تحفيظ الحروف عبر مراحل: أولها تلقين الحروف بأسمائها هكذا: ألف، باء، تاء، ثاء ...، فإذا ما أتم التلميذ حفظ الحروف بأسمائها ينتقل إلى المرحلة الثانية وهي معرفة الحرف المهمل من المعجم بقولهم: ألف لا شيء عليه (أي مهمل)، والباء نقطة من تحت، والتاء نقطتين من فوق، والثاء ثلاثة من فوق ...، ثم يأتي التلميذ إلى المرحلة الأخيرة وهي معرفة كيفية نطق الحروف وعليها الحركات المختلفة، وكذا السكون والشدة والمدود.

- **التدريب على الكتابة:** وتبدأ بتدريب التلميذ على كتابة الأحرف مستقلة، ثم كتابة بعض الكلمات البسيطة، وبعدها التدريب على كتابة القرآن وعادة ما يبتدأ بسورة الفاتحة، حيث يكتب الشيخ بقلم

الرصاص على اللوح ثم يعيد التلميذ الكتابة فوق المكتوب، فإذا ما أتقن ذلك يشكل له الشيخ كلمات بخط متقطع ويقوم التلميذ بوصل الخط المتقطع، وهكذا حتى يتقن الكتابة ويتحكم في مسك القلم واستعماله، ثم ينتقل إلى مرحلة التدريب على الإملاء

– **التدريب على القراءة:** وعادة ما يكون متماشيا مع التدريب على الكتابة، حيث يتدرب التلميذ على تهجية حروف الكلمة المكتوبة في اللوح، فيُبتدأ ببعض الكلمات البسيطة والمتكونة من حرفين أو ثلاثة، ثم الكلمات المطولة، وهكذا يتدرج حتى يتقن القراءة، وبذلك يصبح التلميذ مؤهلا للمرحلة المقبلة وهي مرحلة الكتابة من إملاء الشيخ.

وللإشارة فإن المراحل الثلاث الأولى تخص التلاميذ المبتدئين الذين لا يتجاوزون الخمس سنوات عادة، وهي ليست إجبارية على كل تلميذ، فقد يلتحق التلميذ بالمدرسة بعد هذه السن أو قبلها وهو متقن للقراءة والكتابة فينتقل مباشرة إلى المرحلة المقبلة.

– **الكتابة من إملاء الشيخ:** بعد إتقان التلميذ للقراءة والكتابة يصبح مؤهلا لمرحلة الإملاء، حيث يجتمع على الشيخ مجموعة من التلاميذ في شكل نصف حلقة، ويقوم الشيخ بالإملاء عليهم كل حسب موضع حفظه، وكلما انتهى التلميذ من كتابة المقطع المُملى عليه، يعيد قراءته على الشيخ فيضيف له المقطع الموالي، وهكذا حتى يتم التلاميذ كتابة ألواحهم تواليا.

– **تصحيح الألواح:** بعد أن يتم التلاميذ كتابة ألواحهم يقوم الشيخ بتصحيحها، ومن خلال ذلك يقدم للتلاميذ بعض القواعد والتوجيهات في رسم القرآن وضبطه، بعد ذلك يقوم التلميذ بإعادة قراءة اللوح المكتوب على الشيخ، وإذا ما أخطأ في قراءة كلمة يصححها له، ويطلب منه إعادة قراءتها مرتين أو ثلاثة، حتى يتأكد من اتقانه لها وتترسخ في ذهنه.

– **حفظ الألواح:** بعد كتابة اللوحة وتصحيحها تصبح جاهزة للحفظ، فيقوم التلميذ بحفظها تدريجيا، وعادة ما يستعين التلاميذ بالعرض على بعضهم البعض قبل العرض على الشيخ، فإذا ما تأكد التلميذ من حفظ لوحه يقوم بالعرض على الشيخ، فإذا أتقن حفظه يطلب منه محي اللوح لإعادة كتابة الجزء الموالي، وإلا طلب منه إعادة الحفظ وتثبيته إذا ما كان فيه نقص.

– **التكرار والمراجعة:** وهي طريقة هامة لتثبيت الحفظ وترسيخه، وتكون في الفترة المسائية التي تبتدئ عادة بعد العصر، ويختلف التلاميذ في مقدار التكرار بحسب تقدمهم في الحفظ، فكلما تقدم التلميذ في الحفظ زاد له الشيخ في مقدار التكرار، فيبدأ بتكرار السورة والسورتين، ثم ينتقل إلى نصف الحزب، ثم حزب، ثم حزبين ... وهكذا.

– **حلقات الدروس:** كما سبق الإشارة فإن مشايخ المدرسة عملوا على التركيز على الجانب العملي من التعليم القرآني، وجعل القرآن الكريم منهج حياة، وذلك من خلال الحرص على شرح معاني كلماته، وتفسير جمله وآياته، واستنباط هداياته وإرشاداته، وحث التلاميذ على التخلق بآداب حملة القرآن، إضافة إلى تعليم بعض المبادئ الفقهية كتعليم أحكام الطهارة والوضوء والصلاة ... اعتمادا على بعض المتون كمتن ابن عاشر والجوهرة وغيرها.[35]

6. الأنشطة الإصلاحية التي مارستها المدرسة تحت غطاء التعليم القرآني

سبق الإشارة إلى النقاش الواسع الذي دار بين مؤسسي مدرسة الفلاح الحرة حول ضم المدرسة إلى جمعية العلماء المسلين بعد زيارة الشيخ البشير الإبراهيمي للمنطقة، إلا أن حكمة مدير المدرسة الشيخ الحشاني العمري رجحت كفة عدم انضمام المدرسة للجمعية وإبقائها مدرسة حرة للتعليم القرآني، مراعاة لطابع المنطقة العسكري، وحفاظا على استمرار نشاط المدرسة، وحقيقة كان موقفا حكيما مسددا من الشيخ العمري، حيث استطاع أن يضمن استمرار نشاط المدرسة، وعدم دخولها في مواجهات مع السلطة العسكرية، ومن جهة أخرى مارست المدرسة مجموعة من النشاطات الإصلاحية تحت غطاء التعليم القرآني دون لفت انتباه السلطات العسكرية، ومن أهم هذه الأنشطة:

6،1. التعليم العربي الحر:

أشرنا كذلك أن المستعمر الفرنسي قد اجتهد في القضاء على اللغة العربية، ومحو أثرها من ألسنة الأهالي، وجعلها لغة ثانية أجنبية، وقد تفطن معلمي مدرسة الفلاح لذلك، فجعلوا تعليم اللغة العربية من: قواعد؛ ونحو؛ وصرف؛ وبلاغة؛ من المواد الأساسية، وذلك بالاعتماد على أمهات المتون في هذا الباب، كالآجرومية وقطر الندى ...، وبعد التحاق الأستاذ محمد الأخضر السائحي بالمدرسة، نشطت حركة الأدب والشعر وعرفت رواجا كبيرا، واستقطبت المدرسة مجموعة من الأدباء والشعراء كانوا يجتمعون مساء في نادي المدرسة، ويتجاذبون أطراف الحديث والإبداع.[36]

6،2. تصحيح العقيدة ومحاربة البدع والخرافات والشعوذة:

سبق وأن أشرنا أنه من أهم أهداف المستعمر في دعم الطرق الصوفية، هو تجهيل العامة وتغييبهم، من خلال إغراقهم في البدع والخرفات، واعتقادهم في الأضرحة واتباع المزارات، وتصديقهم للشعوذة والدروشة والخزعبلات، وعليه فقد اجتهد علماء المدرسة في تصحيح العقائد، ومحاربة كل هذه المظاهر المنحرفة، من خلال بث العقيدة السليمة المستندة إلى كتاب الله وسنة رسوله، خاصة وأن أغلب أعلام المدرسة قد كانت لهم جولات وصولات بالزيتونة والحجاز والشام، التقوا من خلالها بمجموعة من مشايخ الإصلاح، الذين لهم عقيدة سنية سليمة، فأخذوا عنهم، وتأثروا بهم، ونقلوا ما تلقوه إلى تلامذتهم.

6،3. محاربة التبشير والتنصير:

لقد كان لمدرسة الفلاح دورا هاما في مواجهة المبشرين المزروعين في المجتمع التقرتي، الذين سخروا كل إمكانياتهم المادية والمعنوية والعلمية لتنصير الشباب وتضليلهم، وصرف العائلات الفقيرة عن دينها، فكان شيوخ المدرسة لهم بالمرصاد، يذبّونهم عن الشباب، ويبعدونهم عن العامة ويحذرونهم منهم، ويفضحونهم أمام الخاصة ويدحضون شبههم، فاستطاعوا هزيمتهم علميا وعمليا، وفوّتوا عليهم كل فرصه تكاد تمكنهم من تحقيق بعض أغراضهم، ولم يتمكنوا من تنصير واحد من أبناء تقرت، ولا تكفير شاب كما وقع في جهات أخرى من الصحراء.

ومن أدلة ذلك أن أهالي تقرت رفضوا تسجيل بناتهم في مراكز التكوين المهني التي فتحتها السلطات الاستعمارية، والتي كانت تحت تأطير اليسوعيات البيض والزرق، خوفا على بناتهم من الوقوع في حبائل التنصير، فاضطرت السلطات الاستعمارية إلى الاستعانة ببعض الشيوخ والأئمة حتى يبينوا للناس أن هذه المراكز لا علاقة لها بالتبشير، فاقتنع البعض وبقي البعض على رفضه.[37]

6،4. تنظيم البعثات العلمية إلى خارج الوطن:

رغم كل المكائد والمصاعب التي كانت تحيط بالمدرسة من تضييق ورقابة شديدة، وكل الوشايات التي كان يرفعها أعوان المستعمر وأعينه، وكل التهديدات بغلق المدرسة وحلها من طرف السلطات العسكرية، وبفضل صمود وتحدي الرجال المخلصين استطاعت المدرسة أن تشق طريقها وتستمر في تأدية رسالتها التعليمية والتنويرية، حتى كونت نخبة من الطلبة جعلت منها نواة لبعثة علمية توّجت بها جهودها، حيث وُجهت أول بعثة لجامع الزيتونة في الموسم الدراسي 1950/1949 م، وضمت هذه البعثة السادة: " كافي محمد بن علي، كافي علي، كافي محمد بن عبد السلام، كافي أحمد بن محمد العربي، بن حميدة مولدي، بورقعة محمد، معاذ إدريس، وعرعار محمد السعيد "[38]. وكان هؤلاء الطلبة عند عودتهم إلى تقرت في العطلة الصيفية يقومون بالتدريس في المدرسة ومساعدة مشايخهم في ذلك.

6،5. المحافظة على الهوية الوطنية:

من أهم أدوار مدرسة الفلاح المحافظة على الهوية الوطنية للشعب الجزائري، وذلك من خلال تدريس مادتي التاريخ والجغرافيا، اللتان منعتا من التدريس بأوامر من السلطات الاستعمارية، وذلك بغية طمس الهوية الوطنية، وإبعاد الجزائريين عن معرفة تاريخ وطنهم، وأمجاد أبطالهم، وحدود وتضاريس بلادهم، فأدرجت مدرسة الفلاح تدريس مادتي التاريخ والجغرافيا في إطار ثورة التجديد التي جاء بها الأستاذ محمد الأخضر السائحي.

6، 6. إثارة الوعي والحماسة في نفوس التلاميذ:

ذكرنا أن المستعمر كان يهدف إلى إثارة مشاعر اليأس والإحباط في نفوس الأهالي، ودعوتهم إلى الجمود والركود، وإقناعهم بالرضا بواقعهم المعاش، وأن بقاءهم تحت رحمة الاستعمار أفضل وأحسن لهم من الحرية، وإن انطلت هذه المكائد على البعض، فإن رجال الإصلاح بالمدرسة كانوا على درجة عالية من الفطنة واليقظة، وعملوا على معالجة هذا الوضع النفسي الصعب، من خلال نشر الوعي والحس الوطني في نفوس التلاميذ، وإلهاب حماستهم، وزرع روح المقاومة والتحدي والصمود فيهم، وذلك من خلال مجموعة من الأناشيد الوطنية والقصائد الشعرية الممجدة للوطن والمقاومة والبطولة، إضافة إلى بعض التمثيليات المسرحية التي تشخص الواقع المعاش، وتشرح خطورته، وترسم المستقبل المشرق المأمول، فآتت هذه النشاطات أكلها وأعطت ثمارها، فكان لها أثر طيب في نفوس التلاميذ وأهاليهم، وإصرارهم على تحدي الصعاب، وتحمل مسؤولية التغيير والإصلاح، لتحقيق الهدف المنشود ومحاربة كل أساليب الظلم والاستعباد.

6، 7. تهيئة الأرضية للعمل الثوري المسلح:

إن الجهد الإصلاحي والتنويري الذي سعت إليه مدرسة الفلاح الحرة، وغيرها من مدارس جمعية العلماء المسلمين، أو مدارس التعليم العربي الحر، كانت بمثابة النواة الأولى والركيزة الأساسية للعمل الثوري المسلح، فلا يمكن لثورة أن تقوم بأناس يائسين محبطين، فاقدين لأسس دينهم وقيمهم، جاهلين لتاريخهم وتضاريس بلادهم، غير مدركين لمسؤولياتهم اتجاه وطنهم، فكل هذه المظاهر وغيرها حالت دون تحرك الجزائريين وثورتهم، لولا العمل الجبار والجهد الدؤوب الذي قامت به مدارس الإصلاح، فبعد أن عالجت كل المظاهر السلبية التي سعى المستعمر لترسيخها، معنويا من خلال تنوير العقول وتثقيف النفوس، وميدانيا من خلال العمل الكشفي، الذي يعد بمثابة تدريب ومحاكاة للعمل العسكري، بعد ذلك اقتنع الجزائريون بحقهم في تقرير مصيرهم، واسترجاع حريتهم، وانتزاع حقوقهم، وأن ما أُخِذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، وأن الجهاد والتضحية والصمود هو السبيل الوحيد لتحقيق الانتصار والتنعم بالاستقلال، آنذاك أصبحت الأرضية مهيأة لإعلان بداية العمل الثوري المسلح، فكان ذلك باندلاع ثورة التحرير المباركة، التي قدم فيها أبناء الجزائر وأبطالها كل دروس التضحية والصمود والاستبسال للعالم أجمع.

7. خاتمة

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، فقد أتيت إلى خاتمة هذه الورقة البحثية، والتي خصصتها لأهم النتائج المتوصل إليها، وهي:

1- لقد أفرز الاحتلال الفرنسي لمدينة تقرت وسائر ربوع الوطن وضعا اجتماعيا وثقافيا صعبا جدا، غلب

عليه الفقر والأمية والجهل، وانتشر فيه الجمود الفكري والبدع والخرفات، وخيم عليه حملات الفرنسة والتبشير والتنصير.

2- لم تخل تقرت بأحيائها وأزقتها يوما من رجال مخلصين مثقفين، واعين بالواقع المرير، يتابعون ما يجري على يد المعمرين وأعوانهم، ويتحينون الفرصة للحركة والتغيير، كان من أبرزهم أعلام ومشايخ مدرسة الفلاح الحرة.

3- لقد كان تأسيس مدرسة الفلاح الحرة ثمرة مباركة لجهود زمرة من أبناء تقرت، كان لاحتكاكهم برجال الإصلاح في الزيتونة والحجاز والشام أثرا بارزا، فتبنوا أفكار الإصلاح ورعوها، وجسدوها في تأسيس هذه المدرسة الحرة، التي وحدت جميع سكان تقرت في بنائها وتشييدها.

4- ضمت مدرسة الفلاح خيرة من مشايخ وأساتذة تقرت، أشهرهم الشيخ أحمد جاري رئيس جمعية الفلاح، والشيخ الحشاني بن العمري أول مدير للمدرسة، والطالب بابا المدافع والمنافح عنها، والأستاذ محمد الأخضر السائحي مجدد برامجها وصوتها الوطني، ورفيق دربه محمد البحري عظامو مؤسس العمل الكشفي التابع لها.

5- لم يختلف التعليم القرآني بمدرسة الفلاح في وسائله وطرقه عما كان يجري عليه العمل في المساجد والكتاتيب، خاصة وأن جل مشايخ المدرسة كان لهم نشاطا موازيا ببعض المساجد، إلا أن ما ميز التعليم القرآني بالمدرسة هو محاولة إحياء الجانب العملي للتعليم القرآني، وجعل القرآن الكريم منهج حياة، والاستفادة من هداياته وإرشاداته.

6- يمكن إجمال الدور الإصلاحي والتنويري الذي لعبته مدرسة الفلاح تحت غطاء التعليم القرآني في: ممارسة التعليم العربي الحر، تنظيم البعثات العلمية إلى الخارج، تصحيح العقائد ومحاربة الدجل والخرفات، المحافظة على الهوية الوطنية وانتمائها العربي والإسلامي، إثارة الحماسة في نفوس الشباب وتهيئتهم للعمل الثوري والكفاح المسلح، وعليه نستطيع القول أن مدرسة الفلاح وإن لم تنضم لجمعية العلماء المسلمين ظاهرا، فقد مارست كل مقرراتها ونشاطاتها باطنا.

8. قائمة المراجع

الكتب والمؤلفات:

1- حرازم علي، 1988 م، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، بيروت، دار الجيل.

2- حسيني أحمد، 2018 م، تاريخ النزلة، الوادي، مطبعة مزوار، الطبعة الأولى.

3- حسيني أحمد، 2019 م، التاريخ الثوري لتقرت ووادي ريغ، الوادي، مطبعة مزوار، الطبعة الأولى، 2019 م.

4- الحصري أبو خلدون ساطع، 1984 م، ما هي القومية، مصر، مركز دراسات الوحدة العربية.

5- الحفناوي أبو القاسم، 1906 م، تعريف الخلف برجال السلف، الجزائر، مطبعة بيير فونتانة الشرقية.

6- حلوش عبد القادر، 1999م، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، الجزائر، دار الأمة.

7- خوجة حمدان بن عثمان، ت: محمد العربي الزبيري، 2005 م، المرآة، الجزائر، منشورات ANEP.

8- سعد الله أبو القاسم، 1992 م، الحركة الوطنية الجزائرية، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الرابعة.

9- غريسي علي، 1434 هـ/ 2013 م، أعلام وأختام الزاوية التجانية بتماسين، الوادي، مطبعة كوينين.

10- قادري عبد الحميد إبراهيم، 1999 م، تاريخ وادي ريغ، الوادي، الآمال للطباعة، الطبعة الأولى.

11- قادري عبد الحميد إبراهيم، 2010 م، تقرت البهجة ماضيا وحاضرا، الجزائر، دار الوعي،الطبعة الأولى.

12- قادري عبد الحميد إبراهيم، 2017 م، شخصيات وأعلام في الذاكرة، الجزائر، دار الأوطان للثقافة والابداع، الجزائر، الطبعة الأولى.

13- الكيلاني جمال الدين فالح، 2014 م، الإمام عبد القادر الكيلاني رؤية تاريخية معاصرة، مصر، دار الفكر، الطبعة الثانية.

14- موهوبي عبد القادر، 2012 م، معجم الصفوة، الجزائر، تين وزيتون للنشر والتوزيع.

الرسائل الجامعية:

- عمراني معاد، السنة الجامعية: 2016/2015، منطقة وادي ريغ في ظل الاحتلال الفرنسي، رسالة دوكتوراه، جامعة الجزائر2 بوزريعة، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ.

المداخلات والمقالات العلمية:

1- التجاني نورة، 2006/12/06 م، التعليم القرآني بين القديم والحديث، مداخلة في الندوة الوطنية المنظمة من طرف مفتشية الشؤون الدينة تقرت.

2- سمير أبيش، جوان 2021 م، واقع التعليم القرآني بمدينة تقرت بالجنوب الجزائري، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 12، العدد 02.

المواقع الالكترونية:

1- الصفحة الالكترونية شخصيات ومعالم تقرت الكبرى، إشراف الأستاذ مولدي تماسيني، تاريخ الاطلاع 2022/02/28 م.
https://www.facebook.com/mouldi.ma3alim/

2- موقع أرشيف المجلات الأدبية والثقافية العربية، مقال للأستاذ الوارث أحمد، الطريقة الوزانية سلوك في الظاهر وجذب في الباطن، تاريخ الاطلاع: 2022/03/07.
https://archive.alsharekh.org/Articles/202/21775/497077

3- الموقع الرسمي لجريدة التحرير، لقاء صحفي مع الأستاذ عبد السلام حمصي رئيس جمعية العلماء المسلمين شعبة تقرت بتاريخ: 2017/05/09 م، تاريخ الاطلاع: 2022/02/27 م.
https://www.altahrironline.dz/ara/articles/265296

الحواشي والإحالات:

[1] : قادري عبد الحميد إبراهيم، تقرت البهجة ماضيا وحاضرا، دار الوعي، الجزائر، الطبعة الأولى، 2010 م، ص 51.

2 : ينظر: قادري عبد الحميد إبراهيم، تاريخ وادي ريغ، الآمال للطباعة، الوادي، الطبعة الأولى، 1999 م، ص 22.

[3] : ينظر: قادري عبد الحميد إبراهيم، تقرت البهجة ماضيا وحاضرا، ص 21-23.

[4] : ينظر: المرجع نفسه، ص 25.

[5] : ولد أحمد التجاني ـ المكنى بأبي العباس أحمد محمد التجاني الشريف ـ بعين ماضي قرب الأغواط سنة 1737 م، حفظ القرآن في سن مبكرة، ولما شب زار بعض الدول العربية؛ كالمغرب وتونس ومصر وبلاد الحجاز، ثم عاد إلى الجزائر، وبعد سنوات من التدريس أعلن ميلاد طريقة جديدة في قصر أبي سمغون بالبيض سنة 1782 م، سميت بالطريقة التجانية نسبة إليه، ثم انتقل إلى مدينة فاس بالمغرب ومكث بها 17 سنة إلى أن توفي فيها عام 1799 م. (ينظر: حرازم علي، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، دار الجيل، بيروت، 1988 م، 23/1)

[6] : ولد الحاج علي التماسيني بتماسين سنة 1767 م، نشأ على التصوف وحبه، ولما شب ذهب عدة مرات لزيارة الشيخ أحمد التجاني مؤسس الطريقة بعين ماضي ثم بفاس، وفي إحدى الزيارات طلب من الشيخ أن يعطيه الوصية ليكون هو حامل البركة بعده في الجزائر، فكان له ذلك سنة 1805 م، فقام ببناء زاوية بمنطقة تاملاحت بتماسين، أصبحت فيما بعد قبلة للمريدين والزوار من كل جهات وادي ريغ، توفي سنة 1844م. (ينظر، سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1992 م، 219/4).

[7] : ولد الشيخ أحمد التجاني سنة 1898 م ببلدة الرقيبة بوادي سوف، حفظ القرآن منذ صغره، كما تعلم مبادئ اللغة والفقه والتصوف على يد شيخ الزاوية بتماسين، وفي سنة 1927 م اعتلى مشيخة الزاوية، حيث عرفت هذه الأخيرة ازدهارا كبيرا في عهده، وكثر مريدوها، توفي سنة 1978 م. (غريسي علي، أعلام وأختام الزاوية التجانية بتماسين، مطبعة كوينين الوادي، 1434 هـ/ 2013 م، ص 55-77).

[8] : هو أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله، يُعرف ويُلقب في التراث المغاربي بالشيخ بوعلام الجيلاني، وبالمشرق عبد القادر الجيلاني أو الكيلاني، ويعرف أيضا بـ"سلطان الأولياء"، وهو إمام صوفي وفقيه حنبلي شافعي، لقبه أتباعه بـ"باز الله الأشهب" و"تاج

العارفين" و"محيي الدين" و"قطب بغداد" وإليه تنتسب الطريقة القادرية الصوفية، ولد بجيلان ببغداد سنة 470 هـ، وتوفي بها سنة 561 هـ. (ينظر: الكيلاني جمال الدين فالح، الإمام عبد القادر الكيلاني رؤية تاريخية معاصرة، دار الفكر، الطبعة الثانية، 2014 م، ص 7-15).

[9] : وهي زاوية تابعة للطريقة القادرية، تنسب إلى مؤسسها بتقرت الشيخ محمد الهاشمي بن إبراهيم، المولود بتاريخ 1853 م بنفطة بالجنوب التونسي، تلقى تعليمه الأول بمسقط رأسه، ثم انتقل إلى البياضة بالوادي فأسس فيها زاوية سنة 1886 م، ثم انتقل إلى تقرت وأسس فيها زاوية سنة 1902 م، وتعتبر هذه الزاوية من أقرب الزوايا إلى السنة، وكان لها مواقف مشرفة في مقاومة الاستعمار الفرنسي، والدفاع عن الضعفاء، توفي سنة 1923 م. (ينظر: موهوبي عبد القادر، معجم الصفوة، تين وزيتون للطباعة والنشر، الجزائر، 2012 م، 1/137-141)

[10] : هو محمد بن عبد الرحمن الأزهري الزواوي الجرجري، المولود حوالي 1720 م، من قبيلة آيت إسماعيل، توفي سنة 1793 م، أخذت هذه الطريقة تنتشر في البلاد، فكان من بين تلامذته محمد بن عزوز البرجي المولود سنة 1756 م بواحة البرج قرب طولقة ببسكرة، فأسس الطريقة بالجنوب وأصبحت الطريقة تنسب إليه، وصار أتباع الرحمانية يعرفون بالعزوزية، أما مقر الطريقة الرئيسي فهو زاوية الهامل ببوسعادة. (ينظر: الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906 م، 2/450-466)

[11] : عمراني معاد، السنة الجامعية: 2016/2015 م، أطروحة دكتوراه بعنوان: منطقة وادي ريغ في ظل الاحتلال الفرنسي، جامعة الجزائر2 بوزريعة، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، ص 94-95.

[12] : هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الحسني الإدريسي الوزاني، الشهير باسم مولاي عبد الله الشريف، ولد بمدشر تازورت بالمغرب سنة 1005 هـ، أمضى طفولته بمسقط رأسه، ثم انتقل إلى فاس فقضى بها وقتا طويلا وتتلمذ على مجموعة من مشايخها، ثم كانت له سياحة صوفية إلى عدة زوايا وأضرحة، إلى أن أعلن طريقته بوزان، توفي سنة 1089 هـ. (الوارث أحمد، الطريقة الوزانية سلوك في الظاهر وجذب في الباطن، موقع أرشيف المجلات الأدبية والثقافية العربية، تاريخ الاطلاع: 2022/03/07).

[13] : ينظر: عمراني معاد، منطقة وادي ريغ في ظل الاحتلال الفرنسي، ص 96.

[14] : خوجة حمدان بن عثمان، المرآة، ت: محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP ، الجزائر، 2005 م، ص 47.

[15] : ينظر: حسيني أحمد، تاريخ النزلة، مطبعة مزوار، الوادي، الطبعة الأولى، 2018 م، ص 150.

[16] : حلوش عبد القادر، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 1999 م، ص 47.

[17] : ينظر: قادري عبد الحميد إبراهيم، تقرت البهجة ماضيا وحاضرا، ص 111-112.

[18] : ينظر: الحصري أبو خلدون ساطع، ما هي القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، مصر، 1984 م، ص 145.

[19] : ينظر: قادري عبد الحميد إبراهيم، تقرت البهجة ماضيا وحاضرا، ص 109 م.

[20] : ينظر: تفصيل الحادثة في ترجمة الشيخ أحمد جاري، ص 11 من البحث.

[21] : الموقع الرسمي لجريدة التحرير، لقاء صحفي مع الأستاذ عبد السلام حمصي رئيس جمعية العلماء المسلمين شعبة تقرت بتاريخ: 2017/05/09 م، تاريخ الاطلاع: 2022/02/27 م.

[22] : الصفحة الالكترونية شخصيات ومعالم تقرت الكبرى، إشراف الأستاذ مولدي تماسيني، تاريخ الاطلاع: 2022/02/28 م.

[23] : وهذا بشهادة الشيخ علي كافي أحد خريجي ومعلمي مدرسة الفلاح، كما ذكر الأستاذ مسعود سنوسي أن ملكية الأرض تعود إلى الشيخ محمد لخضر درويش أحد علماء مدينة تقرت. (نقلا عن صفحة شخصيات ومعالم تقرت الكبرى، إشراف الأستاذ مولدي تماسيني، تاريخ الاطلاع: 2022/02/28 م، وقد حاولت إجراء مقابلة خاصة مع الشيخ علي كافي إلا أن ظروفه الصحية حالت دون ذلك).

[24] : في مقابلة جريدة التحرير مع الرئيس الحالي لجمعية العلماء المسلمين شعبة تقرت الأستاذ عبد السلام حمصي، ذكر أنه يملك شهادة 10 شهود من تلاميذ المدرسة الذين ما زالوا على قيد الحياة يشهدون ويقرون بذلك.

[25] : مقابلة خاصة مع الأستاذ المؤرخ عبد الحميد قادري، بتاريخ 2022/02/15 م.

[26] : قادري عبد الحميد إبراهيم، تقرت البهجة ماضيا وحاضرا، ص 109.

[27] : ينظر في ترجمته: قادري عبد الحميد إبراهيم، شخصيات وأعلام في الذاكرة، دار الأوطان للثقافة والإبداع، الجزائر، 2017 م، ص 83-90. موهوبي عبد القادر، معجم الصفوة، 1/319-326.

[28] : ينظر في ترجمته: قادري عبد الحميد إبراهيم، شخصيات وأعلام في الذاكرة، ص 91-94. موهوبي عبد القادر، معجم الصفوة، 2/43-50.

[29] : ينظر في ترجمته: قادري عبد الحميد إبراهيم، شخصيات وأعلام في الذاكرة، ص 61-68.

[30] : ينظر في ترجمته: قادري عبد الحميد إبراهيم، شخصيات وأعلام في الذاكرة، ص 171-184. موهوبي عبد القادر، معجم الصفوة، 2/179-213.

[31] : ينظر في ترجمته: حسيني أحمد، التاريخ الثوري لتقرت ووادي ريغ، مطبعة مزوار، الوادي، الطبعة الأولى، 2019 م، ص 108-109.

[32] : ينظر: التجاني نورة، التعليم القرآني بين القديم والحديث، ص 2-3.

[33] : ينظر: المرجع نفسه.

[34] : ينظر: سمير أبيش، واقع التعليم القرآني بمدينة تقرت بالجنوب الجزائري، ص 5-6.

[35] : ينظر: المرجع نفسه.

[36] : ينظر: موهوبي عبد القادر، معجم الصفوة، 2/185.

[37] : مقابلة خاصة مع الأستاذ أحمد حسيني، بتاريخ: 2022/03/01 م.

[38] : نفس المقابلة، وأخبرني أن مصدر المعلومة هو أحد أفراد البعثة " بن حميدة المولدي " رحمه الله.